الباب الثاني

نماذج من المشكلات التي تبحثها العيادات

الفصل الخامس : الضعف العقلي

الفصل السادس : التأخر الدراسي

الفصل السابع : ذنوب الأحداث

الفصل الخامس

الضعف العقلى

فكرة عامة عن ضعاف العقول

معنى الضعف العقلى :

ترد إلى العيادات النفسية من آن لآخر حالات يبدو فيها بوضوح وجلاء أن من غير الممكن علاجها ، لأن الشذوذ فيها يتناول التكوين العقلى العام الذى يلازم الحالة من بدء الحياة ، وتتضح آثاره فى تعطيل النمو العقلى بدرجة كبيرة . ومن أمثلة ذلك حالة طفل بلغ سن الثامنة ومع ذلك لم يستطع الانخراط مع زملائه فى روضة الأطفال أو المدرسة الأولية إطلاقا رغم اهتمام والديه ورغبتهم فى تعليمه . ولم يمكن تعليمه حتى مبادىء القراءة أو الكتابة رغم عرضه على الأطباء الذين لم يجدوا عنده أى نقص أو مرض جسمى .

ويعرف الضعف العقلى بأنه «حالة عدم اكتمال النمو العقلى بدرجة تجعل الشخص غير قادر على مواءمة نفسه للبيئة العادية وبحيث لا يستطيع الاحتفاظ ببقائه وحياته بين غيره بدون إشراف أو حماية أو رعاية خارجية على أن يكون ذلك ملازما للشخص من بدء حياته الأولى » .

ويجب أن نؤكد هنا أن ضعاف العقول ليسوا «مجانين» إذ أنهم لم يكونوا عاديين ثم مرضت عقولهم ، بل إنهم نشأوا فى حالة ضعف طبيعى فى القدرة العقلية العامة بحيث لا يمكن شفاؤهم ، وإن كان من الممكن أن تقدم لهم مساعدة كبيرة عن طريق وسائل التمرين وطرق التربية المناسبة لهم . فيصح

إذن أن نفرق بين حالات الاضمحلال العقلي Dementia وهي الحالات التي تحدث في مرحلة ما من مراحل الحياة بعد أن كان العقل في حالة عادية ، و بين حالات القصور أو الضعف العقلي Amentia وهي الحالات التي لا يتم النمو العقلي فيها بدرجة كبيرة ويكون هذا البطء ملازما للشخص منذ الولادة أو قبلها ولا يمكن أن يتحسن .

ومن المهم أن نقرر أن الناس لم يخلقوا جميعا متساوين من حيث القدرة العقلية العامة أو الذكاء ، فكما أن هناك اختلافات فردية بينهم من حيث الصفات الجسمية كالطول والقوة العضلية والتكوين البيولوجي والمزاجي ، فكذلك نجد أن كمية العقل أو الذكاء تختلف من فرد إلى آخر في المجموعة البشرية ، فهناك العباقرة والموهوبون وهم قلة ومن أمثالهم نيوتن وموزارت وداروين ، وهناك العاديون في الذكاء أو المتوسطون وهم الذين يكونون الغالبية العظمى من الناس ، كما أن هناك درجات متفاوتة ممن وهبوا قسطا محدودا من الذكاء تصل في أحط درجاتها إلى من يطلق عليهم المعتوهون Idiots وهم قلة كذلك .

إذن فالفرق بين الموهوب والعادي وضعيف العقل فرق في الدرجة لا في النوع ، ولكن على أي أساس نحدد طبقات الذكاء أو الغباء أو الضعف العقلي؟ هناك اعتبارات كثيرة يمكن أن تحدد بمقتضاها هذه الطبقات المختلفة و بالأخص حالات الضعف العقلي ، ومن ذلك القابلية للتعلم والإفادة من التوجيه والإرشاد ثم نوع السلوك والتصرف الذي يبدو في حياة الشخص وعلاقاته الاجتماعية ؛ كما أن البحث العلمي قد ساعد على إيجاد اختبارات عقلية لقياس الذكاء يمكن بمقتضاها تقدير طبقة الذكاء التي ينتمي إليها الفرد .

الاهتمام بضعاف العقول :

وقد تطورت النظرة إلى ضعاف العقول بتقدم الزمن ، فقد كان الإغريق والرومان القدماء يعتبرون أن ضعاف العقول لا يستحقون الحياة ، ولذا كانوا يتركونهم ليموتوا ، بل كانوا فى اسبرطة يلقونهم فى الماء ليغرقوا . ولا تزال فكرة التخلص من الضعاف موجودة فى بعض الحضارات المعاصرة ، إذ تعمد بعض الدول كألمانيا النازية إلى إعدام أمثال هؤلاء تمشيا مع نظرية البقاء للأصلح .

وفى العصور الوسطى كان ينظر إلى ضعاف العقول على أنهم أبناء للشياطين وكانت أحاديث البلهاء والمعتوهين القاصرة غير المفهومة تترجم على أنها لغة يتفاهمون بها مع آبائهم . . . وكان ينظر إليهم فى أحيان أخرى على أنهم على صلة روحية بالخالق وأنهم من المقربين إلى الله أو من أوليائه الصالحين ، تلك النظرة التى لا تزال موجودة حتى الآن فى بعض الشعوب التى يتفشى فيها الجهل وتنتشر فيها الخرافات ، ومما يساعد على انتشار مثل هذه الاعتقادات الخرافية عجز الأطباء عن علاج ضعاف العقول أو تحسين ذكائهم .

وقد بدأت أول محاولة علمية لدراسة ضعاف العقول بفرنسا عقب الثورة الفرنسية بمناسبة عثور بعض الصيادين فى غابة أفيرون على طفل على الفطرة The Wild Boy of Aveyron تبين فيما بعد أنه ضعيف العقل . وقد اهتم بدراسته إيتارد Itard الذى كان طبيبا بمدرسة الصم فى باريس فى ذلك الوقت حوالى عام ١٧٩٨ ورغم أن إيتارد قد عجز عن تعليم هذا الطفل إلا أنه استطاع أن يثير الاهتمام بضعاف العقول وصفاتهم النفسية . وقد قام سجوان Seguin تلميذ إيتارد بعمل بعض التجارب والاختبارات غير اللفظية للتفاهم مع هذا

الطفل مما أدى إلى تطور البحث فى قياس الضعف العقلى ، ولا تزال لوحة سجوان الشهيرة تستعمل حتى الآن فى تقدير الذكاء . .

وفى عام ١٨٣٧ أنشأ سجوان Seguin أول مدرسة لتعليم ضعاف العقول فى باريس . ثم انتشرت فكرة إنشاء مؤسسات لهذه الطائفة بالإفادة من أساليب سجوان فى تعليمهم فأنشىء بإنجلترا مؤسسة مشابهة فى هايجيت Highgate عام ١٨٤٩ ، وأنشأ إتمولر Ettmüller مؤسسة بمقاطعة ساكسونى Saxony بألمانيا عام ١٨٤٤ ، كما أنشئت مؤسسة بنيويورك فى عام ١٨٤٨ ودعى إليها سجوان نفسه للمساعدة فى إنشائها .

وبالتدريج اهتمت الدول بوضع التشريعات والقوانين التى ترمى إلى ضمان حماية ضعاف العقول ، والعمل على رعايتهم بحيث لا يكونون عبئا ثقيلا على المجتمع ففى إنجلترا مثلا وضع قانون المعتوهين Idiot Act فى عام ١٨٨٦ ، ولكن أول قانون شامل لطبقات الضعف العقلى وتميزها وضع فى عام ١٩١٣ وأجريت عليه تعديلات متتابعة أهمها قانون عام ١٩٢٧ وتعديل عام ١٩٣٨ كما أفردت لضعاف العقول مواد خاصة فى قوانين التعليم كما نرى فى قانون التعليم الإنجليزى لعام ١٩٤٤ والتعديلات التى أدخلت عليه .

الصفات العامة لضعاف العقول :

يختلف النمو العقلى فى ضعاف العقول عنه فى العاديين من حيث : (ا) تأخر النمو العام . (ب) عدم توافق أو انسجام القوى العقلية المختلفة . (حـ) وقوف النمو ووصوله إلى نهايته فى سن مبكرة . وتبدو هذه المظاهر فى الطفل الضعيف العقل منذ بداية حياته كأن يكون قليل الحركة وهو جنين وأن تعوزه الدوافع التى ترمى إلى حفظ الذات بحيث لا تظهر عليه علائم الخوف أو الجوع بوضوح .

ومن الثابت أن ضعاف العقول يتأخرون عن المعتاد عادة فى التسنين والنمو الحركى كالجلوس والمشى ، كما يتأخرون أيضا فى النطق والكلام ، وفى تكوين عادات النظافة ، والاعتماد على أنفسهم فى تناول الطعام أو ارتداء الملابس .

وغالبا ما يكون عندهم اضطراب فى الطاقة المزاجية والوجدانية كأن تكون انفعالاتهم بطيئة الاستثارة ومشوبة بالوهن والضعف فيكونون متصفين بالخمول Apathetic أو تكون انفعالاتهم متقلبة بحيث يصعب عليهم التحكم فى تنظيمها وتوجيهها فيكونون متصفين بعدم الثبات Unstable وهذا يسبب لهم مشكلات لا قبل لهم بها ولذا لا تنتظم حياتهم الخلقية والاجتماعية و ينساقون بسهولة إلى التشرد والإجرام .

و يبدو ضعفهم فى نواحى القدرات العقلية المعرفية فى عدم قدرتهم على الإفادة من التعليم بالمدارس العادية ، وفى بطء فهمهم وضآلة أفكارهم وعدم ترابطها أو انسجامها ، وفى أخطائهم الواضحة فى الإدراك والفهم والاستنتاج وعدم قدرتهم على تمييز الخطأ والصواب وعجزهم عن القيام بالأعمال التى تساعدهم على كسب عيشهم وحاجتهم المستمرة إلى رعاية غيرهم لهم .

وغالبا ما يكونون قابلين للإيحاء والانقياد لغيرهم بسهولة ولذا يستغلهم بعض الأشرار عادة فى تنفيذ جرائمهم فيكونون لهم بمثابة مخالب القط و يعرضونهم لخطر وقوعهم فى أيدى البوليس خصوصا وأنهم يقنعون بنصيب يسير من الغنائم.

وهناك نوع من ضعاف العقول تتضح عنده قدرة عقلية فى ناحية خاصة بشكل غير عادى رغم وجود صفات ضعاف العقول السابقة فيه كأن يكون ذا قدرة موسيقية فائقة أوله ذاكرة ممتازة بشكل غير عادى أو أن يكون رساما ماهرا أو غير ذلك . و يطلق على هؤلاء « المعتوهون العارفون » "Idiots ,Savants" .

وقد دلت دراسات بيرت Burt ولويس Lewis على أن نسبة وجود ضعاف العقول فى القرى تكاد تبلغ ضعف نسبتها فى المدن . ويمكن تعليل ذلك بسهولة على أساس هجرة الأذكياء إلى المدن وترسيب ضعاف العقول فى القرى.

مراتب الضعف العقلى

يقسم ضعاف العقول عادة إلى طبقات حسب درجة الضعف العقلى التى تؤثر فى سلوكهم الاجتماعى وقدرتهم على العمل والتعلم ، كما يقسمون أيضا إلى أنواع بحسب ما يتضح فيهم من الصفات الجسمية والباثولوجية والإكلينيكية.

وفيما يلى طبقات الضعف العقلى حسب التقسيم الأول :

المعتوهون Idiots :

وهم أحط طبقات الضعف العقلى ويعرفهم القانون الإنجليزى بأنهم « الأشخاص الذين يوجد عندهم ضعف عقلى بدرجة تجعلهم غير قادرين على حماية أنفسهم ضد الأخطار المادية البسيطة العادية » ويعرف بينيه Binet هذه الطائفة بأنهم أولئك الذين لا يستطيعون التفاهم مع غيرهم بالكلام إذا لم يكن هذا راجعا إلى إصابتهم بالصمم أو البكم أو إلى اضطراب أجهزة الكلام بل يكون عجزهم راجعا إلى نقص القدرة العقلية العامة ، فيكون كلامهم مكونا من مقاطع بسيطة وأصوات غير مفهومة ، ويكون فهمهم لما يقال لهم محدودا بحيث لا يصل إلى أكثر من تلبية الأوامر البسيطة . وطبيعى أن هؤلاء لا يمكنهم أن يتعلموا بالمدارس أو أن يقوموا بأى عمل مفيد بل إنهم يحتاجون لمن يرعاهم ويطعمهم ويعنى بنظافتهم كالأطفال الصغار تماما . ويصل إدراكهم وفهمهم إلى درجة من الضعف تجعلهم لا يستطيعون أن يعرفوا الطريق إلى منازلهم إذا تركوا وحدهم .

وفى الولايات المتحدة يعرف المعتوهون بأنهم ضعاف العقول الذين لا يصل عمرهم العقلى لأكثر من ثلاث سنوات مهما بلغ عمرهم الزمنى ، أو أنهم من تقل نسبة ذكائهم عن ٢٥ .

وتبلغ نسبة وجود هذه الطائفة فى المجتمع ٠٫٦ ٪ ، ومعظمهم من أعمار صغيرة نظرا لوفاة أفراد هذه الطائفة بكثرة بالنسبة لباقى الطبقات .

وتقسم هذه الطائفة أحيانا إلى طبقتين وهما : العته الكلى Absolute Idiocy والعته الجزئى Partial Idiocy وذلك بحسب درجة العته التى تبدو فيها لديهم من دوافع المحافظة على الذات Self Preservation .

وقد لوحظ أن نسبة المعتوهين من الذكور تفوق نسبتهم بين الإناث فقد وجد Lewis أن هناك ٤٫٠ فى الألف من المعتوهين بين الذكور ويناظرهم ٢٩٫٠ فى الألف من المعتوهات بين الإناث .

ويغلب أن يكون الضعف العقلى فى المعتوهين مصحوبا بضعف فى التكوين الجسمى وفى الحواس والتوافق الحركى وفى الإدراك والقدرة على التميز بين المدركات المختلفة ، ولا يستطيع المعتوهون توجيه طاقتهم حتى نحو اللعب المقبول ولا يمكنهم الاستغناء عن رعاية غيرهم وحمايتهم إطلاقا .

ويمكن تصور أفراد هذه الطائفة من وصف الحالة الآتية : —

« بنت من نزيلات مؤسسة ضعاف العقول بانجلترا منذ طفولتها ، لم تكن تستطيع إطعام أو إلباس نفسها أو فهم أى كلام يوجه إليها ، لم تظهر عندها أية رغبة فى الاستطلاع أو التقليد أو أية قدرة على الانتباه ، وكانت قذرة فى عاداتها ودائما يسيل لعابها من فمها ؛ لم تكن تستطيع النطق ولكنها كانت تصدر أصواتا غريبة كنهيق الحمير فى بعض الأحيان ، وكانت تنتابها نوبات تعمل فيها أظافرها وأسنانها فى المحيطين بها بدون تمييز بين زميلاتها وبين

المرضات ، وكانت دائما مصدر قلاقل كثيرة ، وقد ظلت على هذا الحال حتى بلغ عمرها ٣٥ سنة حيث بدأت تنتابها نوبات واضحة من الصرع Epilepsy ، وعند وفاتها تبين من تشريح المخ أن خلاياه كانت تختلف فى تكوينها وترتيبها عن خلايا المخ فى الأشخاص العاديين ، كما وجد أن حجم المخ نفسه كان أصغر من المعتاد » .

البلهاء Imbeciles :

« وهم الأشخاص الذين يوجد عندهم ضعف عقلى وإن كان لا يصل إلى درجة العته إلا أنه يكون ظاهرا لدرجة تجعلهم غير قادرين على رعاية أنفسهم أو مباشرة مصالحهم الخاصة أو أن يتعلموا ذلك » ؛ ويعرفهم بينيه Binet بأنهم من لا يستطيعون التفاهم مع غيرهم بالتعبير اللغوى التحريرى رغم إعطائهم الفرصة والوقت الكافى لتعلم الكتابة ، وهم وإن كانوا يستطيعون عد الأرقام الأولى إلا أنهم لا يستطيعون القيام بالعمليات الحسابية البسيطة ولكن عن طريق العناية الفردية يمكن تعليمهم قراءة وكتابة كلمات ذات حرفين أو ثلاثة وجمع وطرح الأرقام البسيطة ، وهم لا يستطيعون تقليد أى رسم هندسى أو إدراك جزء ناقص من صورة تعرض عليهم ، ولهذا لا يمكن تعليمهم بالمدارس العادية إطلاقا .

ومن الممكن تمرينهم على القيام ببعض الأعمال اليدوية الآلية التى لا يكون فيها أى تصرف أو تغيير فى الحركات وإشراكهم فى أعمال النظافة المنزلية وتعويدهم بعض العادات المفيدة لهم ، ولكنهم لا يمكنهم الاعتماد على أنفسهم فى كسب عيشهم لعجزهم عن الإنتاج المادى الكافى لذلك ، ولعدم وجود فكرة واضحة فى أذهانهم عما يجب أن يتدبروه من النفقات الضرورية لهم .

ويتميز البلهاء عن المعتوهين بأنهم يستطيعون أن يتعودوا حماية أنفسهم من الأخطار المادية الخارجية كأن يبتعدوا عن النار خوفا من الحريق ، وعن الترع والأنهار خوفا من الغرق ، وعن السيارات والقطارات خوفا من الحوادث وهكذا . كما أن إدراكهم وفهمهم يصل إلى درجة يستطيعون بها الوصول إلى منازلهم وحدهم وإن كانوا يضلون الطريق بسهولة إذا ابتعدوا عن الشارع .

وفى أمريكا يعرف البلهاء بأنهم ضعاف العقول الذين يقع عمرهم العقلى بين ٣ سنوات و٧ سنوات ، أو أنهم من تقع نسبة ذكائهم بين ٢٥ ، ٥٠ تقريبا .

وتبلغ نسبة وجود هذه الطائفة فى المجتمع حوالى ١٩ر٠ ٪ ، ونسبة البلهاء من الذكور إلى البلهاء من الإناث كنسبة ٥ إلى ٤ تقريبا .

وبعض أفراد هذه الطائفة يبدو عليهم النمو الجسمى والمظهر العادى بحيث يصطدم من لا يعرفهم بحقيقة كونهم ضعاف العقول ، ولكن البعض الآخر ممن يكون عندهم إصابات فى المخ أو تشوهات جسمية يتميزون بسهولة ، وفى معظم الأحوال يبدو على أفراد هذه الطائفة وجوم الوجه والبله ويدرك من يعاشرهم أن تصرفاتهم وسلوكهم لا يمكن أن تصل إلى أكثر من سلوك الأطفال الذين يكونون أقل من نصف عمرهم .

ويمكن تصور هذه الطائفة من وصف الحالة الآتية :

«شاب فى العشرين من عمره ، كان الطفل الأخير من سبعة إخوة ، مات ثلاثة منهم فى الطفولة وواحد آخر ضعيف العقل أيضا ، الوالد من نزلاء مستشفى الأمراض العقلية ، الوالدة عادية ولكن صحتها ضعيفة .

تأخر نموه فى الطفولة فلم يستطع أن يقف بنفسه إلا فى سن سنتين ، ولم يستطع المشى إلا فى سن ٤ سنوات ، وكان عمره أكثر من خمس سنوات قبل أن يتكلم ، ولم يكن مجموع محصوله اللغوى يزيد عن ١٢ كلمة وهو فى سن العشرين ،

لم يدخل أية مدرسة لأن المدارس رفضت قبوله بها ، بقى فى المنزل حتى سن ١٥ سنة إلى أن أصبحت أمه غير قادرة على حكمه فدخل مستشفى الأمراض العقلية .

قصير بدين بارز التقاطيع كبير الأذنين يبدو على وجهه البله ، أسنانه غير منتظمة ، حركاته ثقيلة وغير متوافقة ، لا يبدو فى حواسه أى ضعف ولكنه لا ينتبه أو يكترث لأى شىء لدرجة تجعل من يتحدث إليه يظن أنه أصم ، فهو يلتفت إذا سمع صوتا مفاجئا كصفارة مثلا ، يبدو أنه لا يهتم أين هو ، وليس عنده أية فكرة عن الوقت ومضيه ، ورغم كونه مسالما ولا يميل للإجرام إلا أنه ينتابه أحيانا نوبات نشاط حركى يصطدم فيها بمن يصادفه » .

المأفونون Morons :

« وهم الأشخاص الذين يوجد عندهم ضعف عقلى وإن كان لا يصل إلى درجة البله إلا أنه يكون ظاهرا لدرجة تجعلهم يحتاجون لرعاية وإشراف وضبط لحماية أنفسهم أو حماية غيرهم منهم . أو فى حالة الأطفال الذين يظهر أنهم غير قادرين — بسبب هذا الضعف — على الإفادة الصحيحة من التعليم بالمدارس العادية » .

ويعرفهم بينيه Binet بأنهم الأشخاص الذين يستطيعون التفاهم بالكلام أو الكتابة مع غيرهم ، ولكن يبدو فيهم تخلف ملحوظ فى التحصيل وكسب المعرفة عن زملائهم من العاديين رغم وجودهم معهم فى نفس الظروف . ولما كان هذا التخلف قد يرجع إلى أسباب كثيرة فإن من المفيد أن يعطى هؤلاء من الاختبارات العقلية ما يوضح أن تخلفهم يرجع إلى نقص فى الذكاء الذى يبدو فى العجز عن الفهم وعدم القدرة على تركيز الانتباه واستمراره وفى

عدم الاهتمام بما يعود على الشخص بالفائدة ، وعدم القدرة على تصميم خطة للسير فى العمل .

ومثل هذه الطائفة لا يمكن أن تصل فى التعليم بالمدارس العادية لأكثر من السنة الثانية الابتدائية رغم المحاولات التى يبذلها المدرسون فى تقويتهم ، ولكن من الممكن تعليمهم فى مدارس خاصة وعلى أيدى مدرسين فنيين ، العمليات الحسابية فى القواعد الأربع فى أبسط صورها وكذلك بعض الدراسات القائمة على الأعمال اليدوية والصناعات البسيطة .

وتتميز هذه الطائفة عن البلهاء بالقابلية للتمرن على القيام بأعمال مفيدة لهم فى كسب عيشهم إذا وجدوا الإشراف المصحوب بالعطف والصبر والرغبة فى مساعدتهم ، وطبيعى أن تكون هذه الأعمال من النوع الذى لا يحتاج إلى تصرف أو ابتكار أو تغيير فى سير العمل .

وهم ينتجون إذا كانوا يعملون فى جماعة أكثر مما لو كانوا يعملون فى عزلة خصوصا إذا كانوا متزنين فى حياتهم الانفعالية والخلقية . ولكن أصحاب المصانع يضيقون ذرعا بهذه الطائفة ولا يطيقون ضعفهم العقلى الذى يؤدى لكثرة أخطائهم ، ومن الممكن أن يقوم أفراد هذه الطائفة بأعمال الحمالين أو بأعمال النظافة وغيرها من الأعمال التى لا تحتاج إلى تحمل أى مسئولية .

ورغم قدرتهم على الكسب بما يكفى لمعيشتهم فهم محتاجون دائما إلى من يرسم لهم خطة الكسب والعمل ، وإلى من ينظم لهم ميزانيتهم ومباشرة مصالحهم الخاصة .

وفى أمريكا تعرف هذه الطائفة بأنهم ضعاف العقول الذين يقع عمرهم العقلى بين ٧ سنوات ، ١٠ سنوات ، أو من تقع نسبة ذكائهم بين ٥٠ ، ٧٠ تقريبا .

وتبلغ نسبة وجود هذه الطائفة بين أفراد المجتمع حوالى ٧٥ر٠٪ ونسبة الذكور منهم إلى الإناث كنسبة ٨ : ٧ .

وتظهر عند أفراد هذه الطائفة الصفات التى ذكرناها عند المتوهين والبلهاء ولكن بدرجات أقل وضوحاً . ولذا يصعب أحيانا تمييزهم قبل الالتحاق بالمدارس ووضوح تأخرهم العقلى .

ويمكن تصور أفراد هذه الطائفة من وصف الحالة الآتية : —

« شاب فى سن ٢٢ سنة يبدو عليه أنه أقل من ذلك بخمس سنوات ، التحق بمدرسة أولية وتركها وهو فى الفرقة الثالثة بعد أن قضى بها ست سنوات ولكن تبين أنه كان ينقل من فرقة إلى أخرى بالنظر لكبر سنه وجسمه ، ولم يكن مستواه التحصيلى يزيد على مستوى الفرقة الثانية ، اشتغل عاملا فى إحدى المطابع مساعدا لأحد العمال بأن يحمل إليه الأوراق التى يطلبها وغير ذلك من الأعمال الآلية . وكان يعطى أجرته كلها لأمه التى كانت تتدبر أمره ، وتشترى له ملابسه إذا احتاج كما لو كان طفلا صغيرا .

كان قانعا سعيدا بعيشته ليس له أى مطمع ، أتيحت له فرصة صداقة إحدى البنات ولكن علاقته بها لم تتطور فهجرته وتزوجت بغيره ، كان يعرف القراءة والكتابة ولكن معلوماته العامة ضئيلة وسطحية ، لا يعرف عن الجغرافيا إلا أنها تتعلق بالبلاد والأنهار ، ولا عن التاريخ إلا أنه ما حدث من من قبل ، ولكنه لا يعرف أية معلومات تاريخية أو جغرافية » .

ضعاف الخلق Moral Defectives :

ويضيف القانون الإنجليزى لضعاف العقول طائفة أخرى وهم «الأشخاص الذين يوجد عندهم ضعف عقلى مصحوب بنزعات ملتوية أو ميول إجرامية ، والذين يحتاجون من أجل ذلك إلى رعاية و إشراف وضبط لحماية غيرهم منهم » .

وقد اهتم القانون بهذه الطائفة لتأكيد أهمية السلوك السام من النواحى الخلقية بدل قصره على النواحى العقلية المعرفية وحدها ، ولتوجيه الانتباه لوحدة العقل وصعوبة الفصل بين النواحى المعرفية والمزاجية خصوصا فى حالات الضعف العقلى ، وقد يظن أن تميز هذه الطبقة كطائفة رابعة يحمل فى طياته أن هؤلاء الأشخاص من مستوى عقلى أحسن من الطوائف السابقة ولكن هذا غير صحيح فهم فعلا ضعاف العقول ولكنهم فوق ذلك يفشلون فى توجيه طاقتهم العقلية وفى تربية قواهم العاطفية والمزاجية بحيث أصبحوا لا يستطيعون التحكم فى أهوائهم وشهواتهم وبحيث يحتاجون لحماية غيرهم من عدوانهم وخطرهم .

ويلاحظ أن السلوك الإجتماعى الشاذ لهذه الطائفة يتصف بالاستمرار رغم العقوبة أو النصح لأن من الصعب عليهم التمييز الخلقى أو فهم المعايير الاجتماعية أو التحكم فى غرائزهم بما يلائم هذه المعايير .

وينزع بعض أفراد هذه الطائفة إلى عدم الانتظام فى أى عمل أو فى الذهاب للمدرسة ولذا يميلون إلى التشرد والانحراف الجنسى وتغلب عليهم صفات التسرع والأنانية وعدم تقدير حقوق غيرهم أو مراعاة شعورهم ، ولا يفيد فيهم التأنيب أو العقاب لأنهم لا يخجلون من أى عمل إذ ليس عندهم أى احترام لأنفسهم . ولا يعبأون بالنظام أو السلطة الضابطة .

وتكثر أكاذيبهم وسرقاتهم وارتكابهم للذنوب الخلقية حتى مع أقاربهم وغالبا ما يتعرضون للإجرام والوقوع فى أيدى العدالة لعدم قدرتهم على تدبير الخطط التى تساعدهم على التخلص .

ومن المستحيل إصلاح هؤلاء أو علاجهم لأن ضعفهم طبيعى ويرجع إلى نقص عقلى وهذا هو الذى يميزهم عن غيرهم ممن يقعون فى أخطاء خلقية .

كما أن شذوذهم الخلقي يلازمهم منذ طفولتهم ولا يكون راجعا إلى أخطاء التربية أو المعاملة التي يلقاها الطفل في بيئته كما يحدث في بعض الحالات التي يتعرض لها بعض العاديين .

الأنواع الإكلينيكية لضعاف العقول

قلنا إن الضعف العقلي أمر يتعلق بنقص الذكاء أو القدرة المعرفية العامة ، وإذن فليس من الضروري أن يكون هناك تلازم بين ضعف الصحة أو نقص النمو الجسمي أو اضطراب الوظائف الفسيولوجية و بين الغباء أو الضعف العقلي؛ غير أن هناك بعض الحالات التي تعرض للعيادات النفسية تكون متصفة بمجموعة من الأعراض المتصلة بالنواحي الجسمية التشريحية والفسيولوجية بجانب نقص الذكاء ، وتكون هذه الأعراض الجسمية واضحة بدرجة كبيرة بحيث يمكن الاستعانة بها على تشخيص وتمييز هذه الحالات . ومن أمثلة الأنواع الشهيرة لضعاف العقول المرتبط ضعفهم العقلي بوصمات وعيوب جسمية مميزة ما يأتي : —

حالات صغر الجمجمة Microcephalic :

وهؤلاء يكون حجم الجمجمة عندهم صغيرا بدرجة ملحوظة رغم نمو الوجه بالحجم الطبيعي ، ويبدو ذلك واضحا في قلة ارتفاع قمة الرأس بحيث يكون البعد العمودي بينها و بين مستوى الأذنين قصيرا جدا ، وتكون النسبة الجمجمية Cephalic Index عندهم — أي نسبة عرض الجمجمة إلى طولها — أقل من المعتاد بكثير حيث تصل إلى ٧٣ر٠ أحيانا بينما هي حوالي ٧٨ر٠ في العاديين . ولا يزيد محيط الجمجمة في تلك الطائفة من الشواذ عن ١٧ بوصة

بينما يكون حوالى ٢٢ بوصة فى العاديين . ولهذا تبدو تقاطيع الوجه — فى تلك الطائفة — كبيرة بمقارنتها بضيق الجبهة وقصر ارتفاع الجمجمة ، أما المخ فيكون صغيرا أيضا بحيث لا يزن أكثر من نصف كيلو جرام رغم نمو الشخص الجسمى التام أحيانا ، وقد يكون المخ سليما وخاليا من العاهات والإصابات مع صغر حجمه ، ولكن التعرجات الموجودة بالقشرة المخية تكون بسيطة وأقل عمقا عن المعتاد . هذا ويلاحظ أن صغر حجم الجمجمة يكون نتيجة — وليس سببا — لصغر حجم المخ ، ولذا لا يفيد العلاج فى زيادة حجم المخ .

أما جلد الرأس فيكون فى الغالب غليظا وبه تجاعيد وتقلصات تحدث نتيجة صغر عظام الجمجمة بالنسبة للجلد الذى يغطيها .

وقد يكون من بين أفراد هذه الطائفة من يكونون فى صحة عامة جيدة ويكون نموهم العضلى عاديا ، إلا أن غالبيتهم يكون نموهم أقل من المعتاد وحركاتهم فى المشى بدائية وذات طابع خاص ، ومعظمهم يموتون فى سن مبكرة ولهذا تقدر نسبة هذه الطائفة بحوالى ٥ ٪ من ضعاف العقول الأقل من عشر سنوات ، ولكن نسبتهم تهبط إلى ٥ر٠ ٪ بالنسبة لضعاف العقول من جميع الأعمار .

أما مستواهم العقلى فيختلف بحيث نجد بينهم المراتب المختلفة للضعف العقلى فمنهم المعتوهون والبلهاء والمورون ، وهم عادة محبون للتقليد الحركى ولكنهم قليلو الضرر عادة ، وبعضهم أميل إلى السرور والمرح والمسالمة .

وهناك تفسيرات كثيرة لأسباب صغر الجمجمة ، منها الارتداد أو النكوص الفطرى نحو جيل حيوانى سابق ، ومنها إصابات الجنين قبل الولادة نتيجة علاج الأم بالأشعة أو الصدمات الكهربائية التى قد تؤثر فى تكوين الطفل... ولكن معظم هذه التفسيرات ليس لها أسس علمية تجعل لها صفة الثبات .

حالات كبر الجمجمة : Hydrocephalic

وفيها يكون حجم الجمجمة أكبر كثيرا من المعتاد ، بسبب امتلائها بالسائل المخى ، وقد يكثر تجمع هذا السائل فى الفجوات الداخلية بالمخ ، أو يكثر وجوده حول المخ من الخارج تحت عظام الجمجمة ، ويكون كبر حجم الرأس ملحوظا حيث تبرز الجبهة وتتكور الجمجمة فوق الوجه بشكل يجعل حملها يبدو ثقيلا ، وقد يزيد محيط الجمجمة عن ٣٠ بوصة بينما يكون فى المعتاد حوالى ٢٢ بوصة ، وعادة يتأخر التآم اليافوخين الأمامى والخلفى كثيرا مما يعرض المخ للأخطار ، كما أن جلد الرأس يبدو مشدودا بحدة على سطح الجمجمة نظرا لكبر مساحتها الخارجية بالنسبة للجلد .

وترجع أسباب هذه الحالات أحيانا إلى إصابات أو عاهات تشريحية بالمخ ، أو أمراض تصيب خلاياه وتعوق نموأنسجته فيبقى ضامرا صغيرا ، ويمتلىء فراغ الجمجمة بالسائل المخى . وإذا كان السائل المخى يتزايد تجمعه بالتدريج فإن الحالة تزداد سوءاً ويموت الشخص بسرعة فى هذه الحالات ، أما إذا وقفت زيادة السائل المخى عند حد معين فمن الممكن أن تكون الحالة أحسن حالا وأطول عمراً .

والمهم فى جميع حالات كبر الجمجمة هذه أن يكون المخ نفسه صغيراً عن المعتاد ، وغالبا ما تتأثر بعض المناطق المخية من ضغط السائل المخى فتؤدى إلى اضطرابات حسية أو حركية ، ولهذا تكثر فى أفراد هذه الطائفة عاهات الحس والحركة كضعف السمع أو البصر ، وحالات الشلل الحركى فى الأطراف والتعرض لنوبات الصرع .

وغالبا ما يكون أفراد هذه الطائفة أميل إلى الطاعة والهدوء ، ولكنهم يعجزون عن القيام بأى عمل يتطلب التوافق الحركى رغم توافر رغبتهم فى القيام به .

حالات القزامة Cretinism :

وفيها يكون الشخص قصير القامة بدرجة ملحوظة وقد لا يصل طوله لأكثر من ٣ أقدام مهما كان عمره الزمنى ، ويصحب ذلك ضعف عقلى عام يرجع إلى انعدام أو قلة إفراز الغدة الدرقية Thyroid Gland . ويتأخر نمو الأطفال من هذه الطائفة فى النواحى المختلفة كالتسنين والجلوس والمشى والكلام ، فقد يتأخر المشى إلى سن خمس سنوات ، وقد يتأخر الكلام إلى سن الثامنة ، كما يتأخر إقفال اليافوخ الأمامى فى الجمجمة بحيث يبقى مفتوحا حتى البلوغ أحيانا ، كما يتأخر النمو والنضوج الجنسى أيضا . ويتميز هؤلاء بجانب قصر القامة بأن يكون جلدهم جافا غليظا مصفرا ، وقد يكون مجعدا فى بعض المواضع ، ويكون شعرهم خفيفا فلا يظهر منه إلا القليل فى الحواجب وفروة الرأس ، وتكون درجة حرارة الجسم أقل من المعتاد كما يكون التنفس مضطربا و بصوت مسموع أحيانا ، وغالبا ما تكون الشفتان غليظتين والفم مفتوحا والأنف أفطسا والعينان متباعدتين ، وهذه الصفات تجعل من السهل الخلط بينهم و بين طائفة ضعاف العقول من النوع المغولى ، ولكن حالات القزامة تتميز بالبطء فى الاستجابات الحركية و بوجوم الوجه وعدم وضوح تعبيراته الانفعالية .

وهذه الحالات قابلة للتحسن إذا أمكن فيها التشخيص المبكر والمبادرة بإعطاء العلاج المكون من خلاصة إفرازات الغدة الدرقية ، خصوصا إذا كان الضعف العقلى نتيجة لقلة إفراز هذه الغدة وكان ذلك راجعا لأسباب مكتسبة ، أما إذا كان الضعف العقلى تكوينيا وولاديا Congenital فلا يفيد فيه العلاج رغم تحسن الأعراض الجسمية نتيجة نشاط الغدة الدرقية .

حالات النوع المغولى Mongolism :

وهى من أشهر أنواع الضعف العقلى التى اهتم بها الباحثون ، ومع أنها من أكثر الأنواع وضوحا فى التشخيص إلا أنها من أكثرها غموضا فى معرفة الأسباب التى تؤدى إلى حدوثها . ويوجد حوالى ٥٪ من نزلاء مؤسسات ضعاف العقول من هذا النوع الذى يتميز بالشبه الكبير بين أفراده وبين الجنس المغولى فى الكثير من الصفات الجسمية الظاهرية . ومن هنا كانت التسمية التى ترجع إلى الدكتور لانجدن داون Langdon Down عام ١٨٦٦ .

وبعض أوصاف هذه الطائفة يمكن ملاحظته عند بعض الأفراد العاديين ، غير أن وجود مجموعة أعراض منتظمة مع بعضها بحيث تحدث طابعا خاصا هو الذى يجعل تمييز ضعاف العقول من النوع المغولى أمرا ممكنا ، وأهم هذه الصفات هى الضعف العقلى المصحوب بالتأخر فى النمو العام وقصر القامة ، وصغر حجم الرأس واستدارتها بحيث يقل بروز الجزء الخلفى منها ، ويتأخر موعد إقفال اليافوخ الأمامى إلى ما يقرب من سن الثامنة أحيانا ، وغالبا ما يكون المخ نفسه قليل النمو وتكون شقوقه واسعة وخلاياه العصبية غير تامة النمو ، أما الوجه فيشبه المغوليين من حيث شكل العينين وانحدار جفونها والثنيات التى توجد بها ، ومن حيث الأنف الأفطس وصغر الأذنين وغلظ الشفتين ، ويبدو اللسان أكبر من الحجم الطبيعى بحيث لا يقفل الفم عليه بسهولة ، ويكون عادة غليظا وبه شقوق واضحة ، ويكون الشعر جافا خاليا من التجاعيد ، أما الأيدى فيكون شكلها غير متناسق حيث تكون عريضة وطرية وتتجه الأصابع فيها فى شكل دائرى وتختلف الثنيات التى توجد عادة فى راحة اليد حيث تكون معظمها خطوطا مستعرضة ، كما يكون الأصبع البنصر قصيرا ومنحنيا إلى الداخل وقد يكون مكونا من

عقلتين بدلا من ثلاثة . أما الأرجل فتكون مفرطحة القدمين وأحيانا يوجد شق واسع بين إبهام القدم والأصبع المجاور له ، وغالبا ما يكون كلامهم قليل الوضوح غير مفهوم إلا لمن يخالطهم .

وهم يولدون عادة بالحجم العادى ، ولكن نموهم يكون بطيئا جدا بحيث لا يصل نموهم لأكثر من نمو شخص عادى فى سن عشر سنوات مهما كان عمرهم الزمنى ، ولهذا يسهل الخلط بينهم وبين الأقزام ، غير أن المفاصل فى النوع المغولى تكون حركتها غير مضبوطة lax joints ومن السهل تمييزهم بالصفات السابقة الذكر التى تجعلهم متشابهين تشابها عجيبا لدرجة أنهم يكونون أشبه بأفراد أسرة واحدة مهما اختلفت بيئاتهم وجنسياتهم .

وهذا التشابه الذى يجعل لهم طابعا مميزا يوحى بقوة أن السبب واحد فى جميع الحالات ، ولكن للآن لم يمكن الاهتداء إلى هذا السبب ، غير أن هناك بعض التكهنات عن الأسباب فبعضهم يقول إنها ترجع إلى ضعف صحة الأم واضطرابها العقلى والمزاجى الشديد أثناء الحمل ، وبعضهم يرجع السبب إلى عوامل أصلية فى تكوين البويضة قبل الإخصاب . . ولذا يطلق عليهم الأطفال الناقصى التكوين Unfinished children ، كما يرجع البعض الآخر هذه الحالات إلى نقص الفيتامينات ومواد التغذية أثناء نمو الجنين ، أو نقص هورمونات الغدد الصماء واضطراب إفرازاتها ، أو الشذوذ النفسى والعقلى فى الأبوين وإصابتهم بأمراض خطيرة وإدمانهم للمخدرات والمواد الكحولية إلى غير ذلك . ولكن هذه الأسباب المختلفة لا تفسر لنا تشابه الأعراض فى جميع الحالات .

هذا وقد وجد أن متوسط عمر الأمهات عند إنجاب الأطفال من هذا

النوع حوالى ٣٧ سنة ، بينما متوسط عمر الأمهات فى إنجاب الأطفال العاديين ٢٩ سنة ، ولكن ذلك لا يفيدنا كثيرا فى معرفة السبب الحقيقى أيضا .

وأفراد هذه الطائفة من ضعاف العقول يتصفون بكثرة الحركة والميل للمرح وحب التقليد والطرب من سماع الموسيقى ، كما أنهم عادة ظرفاء ومحبون للسرور .

أنواع إكلينيكية أخرى :

ويمكن أن يضاف إلى ما سبق أنواع أخرى كثيرة مثل : حالات الضعف العقلى المصحوب بقلة إفراز الغدة النخامية Pituitary Gland فى القشرة السنجابية منها والذى يؤدى إلى وضوح صفات الطفولة فى الشخص Infantilism فيكون رخو اسمينا وجسمه مغطى بالدهن ، وقد لا يحدث عنده النضوج الجنسى . . وهناك أيضا الحالات التى يلازم الضعف العقلى فيها حدوث نوبات الصرع Epilepsy ويكون عندهم صفات الخلق الصرعى كالأنانية وعدم الاكتراث بالغير ، وفى هؤلاء تتدهور حالة الإدراك العقلى بالتدريج ويكون ذلك متمشيا مع مرات حدوث نوبات الصرع عندهم . . . وهناك أيضا حالات الضعف العقلى نتيجة الإصابة بمرض الزهرى الولادى Congenital Syphilis الذى يؤثر فى المخ والجهاز العصبى فى بعض الأطفال الذين يولدون أحياء ، إذ أن معظم هذه الحالات تولد ميتة ولا تعيش طويلا . . . كما أن هناك حالات أخرى أساسها اضطراب فى نمو خلايا المخ وتضخم بعض أجزائه بدرجة تؤثر فى تنظيم الخلايا مما يؤدى إلى وجود الضعف العقلى Sclerotic Amentia الذى يسمى أحيانا Epiloia ، ويتبع ذلك عادة بعض أعراض جسمية ظاهرة كوجود علامات خاصة فى الجلد . . . وهناك كذلك حالات الضعف العقلى المصحوب بالشلل Paralysis ، أو المصحوب بعاهات الحواس كالصمم والعمى . .

كما أن هناك حالات للضعف العقلى تنتج من الإصابة بالحمى الخبية الشوكية . . وحالات أخرى تكون مصحوبة بالإصابة بالأمراض العقلية Psychoses . . وغير ذلك من الحالات المتصلة بالإصابات التشريحية أو الاضطرابات الوظيفية للجهاز العصبى .

أسباب الضعف العقلى

رأينا أن الضعف العقلى يبدو فى وقوف أو عدم اكتمال النمو العقلى إلى درجة تتفاوت بين العته والغباء ، كما رأينا أنه يأخذ صورا إكلينيكية مختلفة ؛ وإزاء هذا التنوع ينبغى فى تشخيص الأسباب أن تبحث كل حالة على حدة فى ضوء ظروفها الخاصة .

ومن الممكن بوجه عام أن نقسم أسباب الضعف العقلى إلى ما يأتى : —

أولا : عوامل وراثية Hereditary

وهى الأسباب التكوينية الأصلية الداخلية Endogenous التى ترجع إلى عوامل طبيعية تؤثر فى تكوين الخلايا ، وقد يحدث ذلك نتيجة التغيرات التلقائيـــة التى تطرأ فى الجينات genes التى تحملها الكروموزومات Chromosomes ، تلك التغيرات التى تعرف فى علم الوراثة بالطفرة العاملية Gene Mutation ، والتى ينشأ عنها وجود صفات جديدة بالنوع تنتقل من جيل إلى جيل ، ويصح اختفاؤها فى بعض الأجيال وعودة ظهورها فى أجيال أخرى . ويمكن أن تحدث هذه التغيرات فى أجيال قديمة من الجدود ، أو فى الآباء القريبين ، ويكون تأثيرها فعالا قبل حدوث عملية الإخصاب وتكوين الزيجوت ، إذ أن ما يحدث بعد هذا الوقت يعتبر راجعا لعوامل دخيلة Induced أو مكتسبة من البيئة .

وقد اتفق على تسمية الضعف العقلى الذى يرجع إلى عوامل أصلية وراثية بالضعف العقلى الأولى Primary Amentia ، وهو الذى يكون حوالى ٨٠٪ من حالات الضعف العقلى . ولا غرو فى ذلك فالذكاء فى أساسه قدرة فطرية لا تكتسب بالخبرة ولا يمكن للبيئة أن تزيد فى كمية ما يرثه الفرد منه وإن كان من الممكن لعوامل البيئة أن تؤثر فى مدى الانتفاع به واستغلال القدر الموروث منه .

ويمكن التحقق من فعل العوامل الوراثية بدراسة التاريخ العائلى Family History لحالات ضعاف العقول ، حيث نجد أن بين آبائهم أو أجدادهم ، من قريب أو بعيد ، من يمكن اعتبارهم دليلا على وجود الاستعداد للضعف العقلى ، إذ يظهر عندهم نوع أو أكثر من أنواع الشذوذ العقلى الذى يتخذ صورا مختلفة مثل الأمراض الذهانية كالبارانويا ، والأمراض العصابية النفسية كالهستريا ، ومثل الصرع ، والكوريا ، والسلوك السيكوباتى ، وكذلك الغباء والضعف العقلى .

إذن فالذى يورث ليس الضعف العقلى نفسه وإنما الاستعداد للإصابة به أو بأى اضطراب عقلى آخر . كما أنه ليس من الضرورى أن يورث الضعف العقلى بنفس الدرجة التى يوجد بها فى الآباء ، فقد تتبع بيرت Burt أبناء حوالى ٥٠٠ حالة من ضعاف العقول فوجد أن ١٤٪ منهم فقط ضعاف العقول وأن ٣٢٪ منهم أغبياء ، كما وجد أن ٨٧٪ منهم جميعا تقل نسبة ذكائهم عن ١٠٠ ، ومعنى ذلك أن أبناء ضعاف العقول قد يرثون درجات — من الضعف العقلى أو الغباء — مختلفة عن درجة الضعف العقلى فى آبائهم .

وعلى الجملة يمكن القول بأن ضعاف العقول يأتون عادة فى العائلات التى يكثر فيها عدد حالات الشذوذ العقلى بأنواعه المختلفة ، وأن الضعف العقلى

يوجد فى آباء ضعاف العقول بنسبة تقدر بحوالى ١٠ ٪ فقط ، ولكنه يوجد بنسبة أعلا من ذلك كثيرا فى أبنائهم حيث تصل إلى ٥٠ ٪ تقريبا حسب تقدير تردجولد Tredgold .

ثانيا : عوامل بيئية Environmental

وهى العوامل التى تحدث تأثيرها بعد عملية الإخصاب وتكوين الجنين ، سواء أكان ذلك فى بداية تكوينه أو فى أثناء مدة الحمل ، أو عند الوضع ، أو عقب الولادة .

ونظرا لأن تأثير هذه العوامل لا يمتد إلى إحداث تغيير أصلى فى جوهر الخلايا ، فإن الضعف العقلى الناتج بسببها يكون عرضيا ولا ينتقل للأجيال التالية . ولأجل هذا تعتبر هذه العوامل خارجية Exogenous ويعتبر الضعف العقلى المتسبب عنها من النوع الثانوى Secondary Amentia .

وقد تكون هذه العوامل ذات أثر كيمائى أو بكتريولوجى أو ميكانيكى كما يصح أن تكون عوامل جسمية أو نفسية أو اجتماعية . ومن الجائز أن تحدث بعض هذه العوامل فى حالات الضعف العقلى الوراثى ، ولكن تأثيرها يعتبر إذ ذاك مصاحبا فقط للضعف العقلى الأصلى ، أما فى حالات الضعف العقلى الثانوى فلا يكون هناك أى أثر وراثى فى العائلة ، بل يكون من المحقق إرجاع الأسباب كلها إلى عوامل وظروف طارئة حديثة يتم حدوثها بعد تكوين الجنين .

ورغم مايبدو لهذه العوامل من أهمية ، وما يميل إليه الكثيرون من آباء ضعاف العقول من إرجاع الضعف العقلى فى أبنائهم إليها حتى لا توصم عائلاتهم بوجود الاستعداد الوراثى للضعف العقلى فيها ؛ فإن نسبة الحالات التى يرجع

الضعف العقلى فيها لهذه الأسباب الثانوية المكتسبة من البيئة لا تتجاوز ٢٠ ٪ من الحالات كلها . بل إن بعض هذه الحالات يحتمل وجود أسباب وراثية لها ولكن لم يمكن استقصاؤها . ويحسن أن نستعرض هذه العوامل المكتسبة مرتبة حسب وقت تأثيرها وحدوثها كما يلى : —

(ا) العوامل التى تحدث قبل الولادة Prenatal خصوصا إذا كانت فى المرحلة الأولى من الحمل ، كما يحدث بسبب إعطاء الأم بعض العقاقير لغرض الإجهاض والتخلص من الجنين ، فلا تنجح المحاولة ولكن تخلف آثارا ضارة بتكوين الجنين قد تؤدى إلى وجود الضعف العقلى عنده . ويتبع هذه العوامل أيضا ما يتعرض له الجنين من الإصابة بالعدوى بمرض خطير يصيب الأم ، أو التأثر من وجود السموم والتكسينات التى تؤثر فى جهازه العصبى ، وكذلك عدم اتزان إفرازات الغدد الصماء ونقص بعض هورموناتها . كما يصح أن يتعرض الجنين للخطر نتيجة صدمة أو حادث يقع للأم أثناء الحمل بحيث يمتد هذا الخطر إلى الجهاز العصبى وخصوصا المخ ، ومن هذه العوامل أيضا ما قد يحدث للخلايا العصبية فى مخ الجنين من إتلاف أو ضمور بسبب تأثير أشعة إكس التى قد تضطر الأم للعلاج بها أثناء الحمل . ويقال أيضا إن بعض الحالات التى يحدث الحمل فيها سفاحا أو يكون الآباء فيها سكارى بتأثير المواد المخدرة والكحولية وما يحيط ذلك من اضطرابات عقلية قد يؤدى إلى الإضرار بالجنين لدرجة تعرضه للضعف العقلى ، على أن كثيرا من العوامل السابقة تعتبر نادرة التأثير .

(ب) العوامل التى تحدث أثناء عملية الولادة Intranatal ، وهى التى تحدث فى حالات الوضع الغير طبيعى Abnormal Birth ، كما فى الحالات التى تطول فيها مدة الوضع لصعوبته وما يحدث من جراء ذلك من التهابات

أو نشوهات فى المخ نفسه ، والحالات التى يحدث فيها اختناق الجنين عقب ولادته Asphyxia لمدة طويلة بسبب تأخر عمل الإسعافات اللازمة لحدوث التنفس ، مما يؤدى إلى اضمحلال بعض الخلايا العصبية نتيجة عدم وصول الأكسوجين اللازم لحياتها ، وقد تحدث إصابة المخ أو جرحه نتيجة استعمال الآلات فى الولادة العسرة . . على أن الحالات السابقة لا تحدث الضعف العقلى إلا فى أحوال نادرة جدا أيضا .

(د) العوامل التى تحدث بعد الولادة Postnatal وهى التى تتسبب عن الظروف الصحية والنفسية والاجتماعية الغير ملائمة التى تؤثر فى حياة المولود وتعرضه للإصابة بضعف العقل ، وفى هذه الحالات يفترض دائما أن ذكاء الطفل كان عاديا ولكنه تأثر بمفعول هذه العوامل لدرجة تؤثر فى إيقاف النمو العقلى أو إبطائه بما يجعل الطفل فى مصاف ضعاف العقول . وقد أدخل القانون الإنجليزى هذه الطائفة فى تحديده لمعنى الضعف العقلى كما يتبين من النص الآتى : —

« الضعف العقلى يعنى حالات وقوف أو عدم اكتمال النمو العقلى ، الذى يوجد فى الفرد قبل سن ١٨ سنة ، سواء أكان ذلك ناتجا من أسباب أصلية ذاتية أم أسباب دخيلة بالمرض أو الإصابة » .

فمن المعروف أن سن الثامنة عشر هو الموعد الطبيعى الذى ينتهى عنده نمو الذكاء الفطرى ، فأى وقوف لنمو الذكاء قبل ذلك يعتبر أمرا غير طبيعى . ومن أمثلة الحالات التى يحدث فيها هذا النوع من الضعف العقلى حالات الحوادث والإصابات المباشرة للمخ والتى يؤدى بعضها لحدوث الشلل و بعضها الآخر لحدوث أمراض عصبية أخرى كما يؤدى بعضها أحيانا لحالات الضعف العقلى .

وهناك أيضا حالات اضطرابات الغدد الصماء ونقص إفرازاتها كما سبق شرحه فى حالة القراءة Cretinism التى ترجع لقلة إفراز الغدة الدرقية ، وكذلك حالات اضطراب الغدة النخامية .

كما أن هناك من الأمراض العقلية ما يكون لها تأثير مباشر على الذكاء والقدرة العقلية العامة بحيث تؤدى إلى الاضمحلال العقلى ووقوف نمو الذكاء .

هذا وغنى عن الذكر أن عوامل الفقر وضعف الصحة العامة وغير ذلك من العوامل الاجتماعية لا يصل تأثيرها وحدها إلى إحداث حالات الضعف العقلى .

واجبنا نحو ضعاف العقول

رأينا فيما تقدم أن ضعاف العقول يعيشون عالة على غيرهم ، ويسببون كثيرا من الضيق والقلق والانشغال لذويهم ، نظرا لعدم قدرتهم على حماية أنفسهم من الأخطار ؛ كما أنهم أيضا مصدر خطر على غيرهم من أفراد المجتمع وأكثر عرضة للانحراف وارتكاب الجرائم ، فكثيرا ما يستغلهم بعض الأشرار فى تنفيذ جرائمهم . وفوق ذلك فهم يكونون نسبة كبيرة من المتشردين والمتسولين ونزلاء السجون ويعتبرون عنصرا هداما فى المجتمع .

وإذا صح تقدير نسبة وجودهم فى المجتمع بحوالى ١٪ فمعنى ذلك أن لدينا فى مصر حوالى ٢٠٠ ألف من هؤلاء يشتركون فى توجيه حياة المجتمع بحكم حقهم فى إعطاء أصواتهم فى الانتخاب وحقهم فى التزاوج والتساوى مع غيرهم فى الحقوق والواجبات . وهم لعجزهم عن التحكم فى نزعاتهم ودوافعهم الغريزية ولعدم تقديرهم للمسئولية أو فهمهم للتقاليد أو إدراكهم للمعانى المقصودة من تحديد النسل مثلا ، يتزاوجون ويتكاثرون بسرعة وبدون ضابط بحيث نجد أن نسلهم أكثر نسبيا من العاديين ، بل إن غالبيتهم يلجأون

إلى التناسل الغير الشرعي ، ولهذا ينتشر بينهم البغاء ، ويعتبرون مصدراً خطيرا للأطفال اللقطاء الغير الشرعيين ، ومرتعا خصيبا للأمراض الجنسية التي يكثر انتشارها عن طريقهم .

ويبدو أن الطبيعة نفسها قد زودتهم بهذه القدرة على كثرة التناسل شأن كل مخلوق ضعيف ، فمن الثابت أن نسبة الوفيات في ضعاف العقول كبيرة وأنهم لا يعمرون طويلا ، ولكن كلما زاد الخطر على حياة نوع من الكائنات كلما ازدادت قدرته على التناسل لكيلا ينقرض . وإذن فليس من السهل مقاومة الطبيعة بالعمل على إبادتهم ، ولكن من الممكن تنظيم حياتهم بما لا يتعارض مع صالحهم وصالح المجتمع . فإذا أضفنا إلى ذلك أن ضعاف العقول لا يمكن جعلهم عاديين في الذكاء بأي علاج ، ولكن من الممكن أن نساعدهم كثيرا على التوفيق والمواءمة بينهم وبين المجتمع بحيث نقلل من أخطارهم ، فإننا ندرك أهمية واجبنا وواجب الحكومة إزاء هذه الطائفة .

وقد سبقتنا الدول الناهضة في هذه الناحية وسارت فيها قدماً ، فوضعت الواجبات في صورة تشريعات وقوانين مفصلة تقوم بتنفيذها هيئات مسئولة .

ويمكن تلخيص ما يجب عمله إزاء ضعاف العقول فيما يأتي : —

أولا : التشخيص المبكر Early Ascertainment

إذا ظهرت بوادر الضعف العقلي في طفل ما قبل سني الدراسة ، فيجب على الآباء والأمهات أن يسرعوا بتحويله إلى العيادة النفسية أو الهيئة المسئولة عن هذه الناحية الاجتماعية للتأكد من وجود الضعف العقلي أو عدمه . والآن وقد أصبح التعليم مباحا بل وإجباريا للجميع فإن عددا كبيرا من ضعاف العقول يمكن معرفتهم وتمييزهم عن طريق المدارس الأولية أو رياض الأطفال ،

وينبغى على النظار والمدرسين أن يقوموا بتبليغ الإدارات التعليمية عن هذه الحالات لتحولها بدورها إلى العيادات النفسية الطبية التعليمية التى تقوم بإجراء اللازم للتثبت من وجود الضعف العقلى أو عدمه . على أنه يجب على المدرسين ألا يخلطوا بين الضعف العقلى والتأخر الدراسى ، فقد يكون التلميذ متأخرا دراسيا لأسباب أخرى غير ضعف الذكاء . ومما يساعد على تمييز الضعف العقلى أنه يكون موجودا فى الطفل منذ ولادته فى جميع الحالات تقريبا ، وأنه يبدو فى عجز الطفل عن التصرف بصفة عامة بحيث يكون تأخره الناتج من الضعف العقلى عاما فى جميع الدروس وليس مجرد تأخر فى ناحية خاصة ، كما يكون شذوذ الطفل باديا فى النواحى المعرفية والإدراكية على الأخص إذ ليس الاضطراب الوجدانى أو المزاجى دليلا كافيا على الضعف العقلى .

ويستعين المختصون فى العيادة النفسية على تشخيص الضعف العقلى بما سبق تفصيله عن الصفات العامة لضعاف العقول ومميزات كل نوع وكل درجة منه ، ولهذا تلجأ العيادة إلى ما يأتى : —

(١) ما يجمعه المختص الاجتماعى عن تاريخ العائلة .

(٢) ما يجمع عن تاريخ حياة الطفل نفسه .

(٣) التشخيص الطبى والسيكياترى .

(٤) مقارنة تصرفات الطفل موضع البحث بتصرفات الأطفال العاديين ، خصوصا فى الحالات التى يكون العمر العقلى فيها أقل من ٣ سنوات بحيث يتعذر إجراء الاختبارات العقلية على الطفل . ويستعان فى هذه المقارنات بالجداول المعيارية لتطور نمو الطفل العادى كتلك التى وضعها جزل Gesell أو التى وضعها تردجولد Tredgold خصيصا لتشخيص حالات الضعف العقلى .

(٥) إجراء اختبارات الذكاء المقننة Standardised وأهمها مقياس بينيه Binet الذى يعتمد على التعبير اللفوى ، وهناك اختبارات أخرى تصلح للتطبيق على من يعوقهم التعبير بالكلام مثل اختبارات القلم والورقة Pencil-Paper Tests كاختبار متاهات بورتيوس واختبار رسم الرجل ، كما توجد أيضا مجموعة كبيرة من اختبارات التأدية الحسية Performance Tests كلوحات الأشكال ومجموعة اختبارات كلتر ودريفر Collins & Drever واختبارات الكسندر Alexander وغيرها .

ويمكن للعيادة النفسية — أو الهيئة التى يصح أن تعهد إليها الحكومة بمهمة التأكد من تشخيص الضعف العقلى — فى ضوء ما سبق أن تقرر وجود الضعف العقلى أو عدمه ، وأن تقدر درجة الضعف العقلى ونوعه إذا أمكن بحيث يعتمد على تقديرها فى التصرف إزاء الحالة .

ثانيا : الوضع تحت الإشراف Supervision

فإذا ثبت وجود الضعف العقلى وجب تحويل الحالات إلى جهات يضمن لهم فيها التربية والتمرين المناسب لاستغلال ما لديهم من مواهب عقلية إلى أقصى حد ممكن ، بما يساعدهم على تكوين عادات صالحة وتعلم بعض الأعمال والمهن الميسورة التى تساعدهم على كسب العيش وأهم هذه الجهات ما يأتى : —

(١) المدارس الخاصة Special schools ، حيث يقدم لهم فيها دراسات قائمة على الاهتمام بالنواحى العملية والمهنية على أيدى مدرسين مختصين فى تعليم ضعاف العقول ، ويحول لهذه المدارس حالات الضعف العقلى الممكن لهم الإفادة منها بحيث لا نجد بينهم من يكونون فى درجة العته أو البله . وهذه المدارس يجب أن تكون حكومية ومجانا .

(٢) المؤسسات المعترف بها كمراكز لرعاية ضعاف العقول Certified Institutions ، ويرسل إليها الحالات التى لا تتوافر فى منازلهم مقتضيات الرعاية والحماية والإشراف اللازم لمثل هؤلاء الأطفال . وينبغى أن يوافق الآباء على إيواء أبنائهم فى مثل هذه المؤسسات ، إلا فى الحالات التى ترى السلطات المختصة فيها عدم ضرورة هذه الموافقة . وفى العادة يقوم الآباء القادرون بالمساهمة فى نفقات إقامة أولادهم بهذه المؤسسات .

(٣) المؤسسات العامة للمساعدة المؤقتة Public Assistance Institutions وتحول إليها الحالات التى ينبغى فيها الإسراع بضرورة تغيير بيئة الطفل لضمان حمايته أو حماية غيره منه ، ويبقى بها الطفل مؤقتا إلى أن يتم عمل الترتيب اللازم لتدبير مكان له فى مؤسسة أخرى من نوع آخر ليعيش فيها حياة استقرار .

(٤) إبقاء ضعاف العقول فى منازلهم تحت الإشراف المستمر من الهيئة المسئولة عن رعاية ضعاف العقول ، بحيث ترسل إليهم من وقت إلى آخر زائرات صحيات واجتماعيات للإرشاد والتوجيه ، وفى هذه الحالة تقوم الأمهات بما يجب عمله من مران وتعليم تحت إشراف المختصين . ويتوفر على الأهل كثير من المتاعب التى تتسبب عن القلق فى حالة انتزاع الطفل منهم وإرساله لمؤسسة بعيدة .

(٥) نقل الطفل من منزله إلى منزل آخر من المنازل المرخص لها بمزاولة احتضان هـذا النوع من الأطفال ، وفى هذه الحالة يدفع أهل الطفل — أو الحكومة فى حالة عجزهم — تكاليف إقامة الطفل ومعيشته لمن يدير المنزل الجديد . ويعتبر نظام الرعاية هـذا Guardianship حلا وسطا بين بقاء الطفل فى منزله تحت الإشراف ، ونقله إلى مؤسسة أخرى ، ويصح أن تضم هذه المنازل عددا قليلا من ضعاف العقول بحيث يعيشون فى شبه عائلة على

أن تختار من الأطفال من يسهل قيادتهم ولا يخشى خطرهم من لا يتحتم حجزهم في مؤسسات أخرى .

ثالثا : العزل في مستعمرات خاصة Segregation

وفي حالات الضعف العقلي من درجتي العته والبله ، أو الحالات التي يشتد خطرها ويتحتم إبعادها عن المجتمع تلجأ الهيئات المشرفة على ضعاف العقول إلى نظام العزل في مستعمرات Colonies يبقى بها ضعاف العقول بصفة مستديمة ، بحيث لا يسمح لهم بتركها بل يبقوا بها ليعيشوا في مجتمع خاص بهم له نظمه وتدابيره ، وينظم لهم إشغال أوقاتهم بما يساعد على المساهمة في تمويل المستعمرة . ويعهد بالإشراف على هذه المستعمرات إلى مختصين في تربية ضعاف العقول .

وتعتبر هذه المستعمرات مراكز علمية للبحوث الطبية والنفسية والاجتماعية ولهذا يزورها العلماء ويقضي بها الباحثون وقتا طويلا . ومن أمثلة ذلك البحوث التي قام بها بنروز Penrose في دراسة العوامل الوراثية للضعف العقلي بمستعمرة كلشستر Colchester بانجلترا ، حيث درس حالة ١٣٨٠ فردا من ضعاف العقول . ويختار لهذه المستعمرات أماكن بعيدة عن المدن وفي مناطق ريفية حيث يسهل تنظيم وسائل الإعداد والمران القائمة على الاشتغال بالأعمال الزراعية ، كما تنشأ بالقرب من هذه المستعمرات أيضا مراكز للتدريب المهني Occupational Centres يحول إليها ضعاف العقول ممن يحتمل تعليمهم بعض الحرف والصناعات .

وطبيعي أن هذه المستعمرات تتطلب نفقات كثيرة تتحملها الدولة والهيئات الخيرية من أجل هذه الفئة التي خلقها الله لتكون عالة على غيرها . ولكن هذه النفقات في الواقع أقل بكثير من النفقات التي يتكلفها ضعاف العقول

لو تركوا بين أفراد المجتمع العادى ، خصوصا إذا أدخلنا فى حسابنا ما ينجم عن أخطارهم وحوادثهم من أضرار مادية واجتماعية .

ويضاف إلى ذلك أن إبقاءهم فى هذه المستعمرات يبعدهم عن جو الحياة المدنية الذى لا قبل لهم به والذى يشعرون فيه بالذلة والنقص عن غيرهم ، بينما هم فى المستعمرات الخاصة بهم يقضون وقتا يشعرون فيه بكثير من الحرية والسعادة والبعد عن الأخطار .

رابعا : التعقيم Sterilization

إن أول ما يخطر بالبال كعلاج لمشكلة ضعاف العقول هو إيقاف دخولهم المجتمع بتنظيم الزواج والتحكم فى التناسل بحيث نمنع تيار غزوهم ، وذلك بأن نلجأ إلى تعقيمهم بحيث يصبحوا غير قادرين على إنجاب أجيال أخرى منهم . وهذا يحتاج إلى وضع التشريعات والقوانين التى تبيح هذا الإجراء .

وقد يعترض على ذلك بأنه إجراء معارض لحقوق هؤلاء الآدميين وحريتهم فى الحياة والتكاثر ، وأن هذا تدخل فى عمل الطبيعة التى يجب أن تترك لتعمل حسب قانون الانتخاب الطبيعى و بقاء الأصلح . . . كما قد تقوم أمام هذا الإجراء صعوبات عاطفية ودينية وسياسية . . . ولكن أهم ما يوجه لهذا العلاج من نقد أنه لا يؤدى إلى القضاء على ضعاف العقول قضاء تاما كما يتبادر إلى الذهن ، إذ المعروف كما سبق أن قلنا أن ١٠ ٪ فقط من ضعاف العقول يأتون من آباء ضعاف العقول ، أما الباقون فيأتون من آباء عاديين أو ممتازين فى الذكاء . كما أن تعقيم ضعاف العقول سيمنع إنجابهم لأفراد قد يكونون أذكياء وعاديين . . . ولكى يكون هذا العلاج مؤديا للغرض المقصود منه ينبغى ألا يتناول ضعاف العقول فحسب ، بل أيضا جميع الأفراد الذين يظهر عندهم

أمراض عقلية أو صرع أو غباء أو إدمان أو سلوك إجرامى طبيعى فيهم . . أو غيرهم ممن يكون عندهم الاستعداد لإنجاب ضعاف العقول كما سبق أن بينا . . كما أن هناك صعوبات أخرى إدارية وفنية من حيث طريقة التنفيذ سواء فى طريقة قياس الذكاء وتحديد الحالات التى ينطبق عليها القانون ، أو فى الأساليب الطبية التى تتبع فى التعقيم ومدى نجاحها أو غير ذلك .

و برغم هذه الاعتراضات والصعوبات فقد قامت بعض الدول فعلا بتطبيق نظام التعقيم الإجبارى ، فقد بدأت بعض الولايات الأمريكية بالأخذ به منذ عام ١٩٠٧ ، كما لجأت إليه ألمانيا النازية وغيرها من البلاد ، أما فى انجلترا فقد صدرت بها تشريعات تقضى بجعل التعقيم أمرا اختياريا منذ عام ١٩٣٣ .

أما فى مصر فحتى الآن لا توجد تشريعات بشأن ضعاف العقول كطائفة لا من حيث تشخيصهم أو تعليمهم أو إيوائهم ، ولا زلنا محتاجين إلى إيقاظ الوعى القومى والاجتماعى لفهم مسائل تحديد النسل من نواحيها المختلفة .

خامسا : العلاج الطبى Medical Treatment

قلنا إن الضعف العقلى ليس مرضا وإنما هو درجة من درجات الاختلافات الفردية الطبيعية فى القدرة العقلية العامة ، و إذن فالكلام عن العلاج والشفاء فى الضعف العقلى ليس له محل ، وخصوصا فى حالات النوع الموروث الأولى Primary و إنما يقصد بالعلاج الطبى هنا ما يتناول بعض الحالات من النوع الثانوى Secondary ، و الحالات التى يكون الضعف العقلى فيها مصحوبا بأمراض جسمية تتطلب العلاج . وأهم النواحى التى يكون للعلاج الطبى فيها بعض القيمة ما يأتى : —

(١) حالات الضعف العقلى الذى ترجع أسبابه إلى اضطرابات الغدد

الصماء والتى يمكن فيها إعطاء خلاصة الغدد منذ الطفولة ، وقد ثبت نجاح العلاج فى بعض حالات القزامة Cretinism على الخصوص .

(٢) علاج الأم والطفل فى حالات الاصابة بمرض الزهرى ، على أن علاج الأطفال ضعاف العقول بهذا السبب لا يؤدى لأكثر من إيقاف تقدم المرض وبالتالى يوقف استمرار تناقص الذكاء ، ولكن من النادر أن يؤدى العلاج إلى زيادة إيجابية فى الذكاء .

(٣) إجراء العمليات الجراحية فى بعض الحالات التى يكون السبب فيها راجعا إلى إصابات فى المخ أو حالات كبر الجمجمة وغيرها من الحالات بشرط ألا يكون سبب الضعف العقلى فيها وراثيا ، ولكن من النادر جداً نجاح هذه العمليات فى إحداث تحسن فى الذكاء . ومثل هذا ينطبق على المحاولات التى بذلت فى تجريب العلاج بالصدمات الكهربائية وغيرها من الوسائل العنيفة .

(٤) إعطاء بعض العقاقير التى تساعد على تنشيط القدر الموجود من الذكاء ، فقد ثبت حتى فى حالات الأفراد العاديين فى الذكاء — أن أخذ كميات مناسبة من الكافين أو البنزدرين يساعد على إيقاظ النشاط الذهنى بصفة مؤقتة — ولكنه لا يساعد على تحسين كمية الذكاء الفطرى .

هذا وقد أجرى ألبرت Albert وآخرين عام ١٩٤٦ وكذلك زمرمان Zimmerman وآخرين عام ١٩٤٨ تجارب على استعمال الحمض الجلوتيمى Glutamic Acid كعلاج لضعاف العقول فوجد أنه يفيد فى حالات الضعف العقلى المصحوب بالصرع حيث يوقف نوبات الصرع وينظم النشاط العقلى بما يساعد على تحسين الذكاء . على أن تحسن الذكاء بهذا العلاج لا يمكن أن يزيد عن بضع درجات كما أنه علاج يصعب الحصول عليه ويتطلب عناية خاصة فى طريقة استعماله .

مراجع الفصل الخامس

1. Burt, C. : The Subnormal Mind : Ch. II 1937.
2. National Association for Mental Health : Notes on Legislation Relating to Mental Defects. 1946.
3. Penrose, L. S. : The Biology of Mental Defect, 1949.
4. Shrubsall & Williams : Mental Deficiency Practice. 1932.
5. Stoddard, G. D. : The Meaning of Intelligence. Ch. XI. 1943.
6. Tredgold, A. F. : Mental Deficiency. 1947.

الفصل السادس

التأخر الدراسى

التأخر وأنواعه

سبق أن قلنا إن العيادات النفسية التربوية تهتم بعلاج حالات التأخر الدراسى التى لا يجد المدرس من وقته ما يكفى لبحثها بحثا شاملا ، والتى يحتاج فيها إلى الالتجاء إلى المختصين بالعيادة .

والتأخر الدراسى مشكلة مدرسية اجتماعية تهم الآباء والمدرسين والتلاميذ وكل من لهم صلة بهم ، ولذا فهى تستوجب بحث عواملها وأسبابها ووسائل علاجها . ويكفى الإشارة إلى ما ينتج عن إهمال علاج التأخر الدراسى من رسوب التلميذ وفشله فى التعليم أحيانا ، وما يلابس ذلك من قلق واضطراب عائلى ومن خسارة وضياع فى الوقت والمال والمجهود فى الدروس الخصوصية و إعادة الامتحانات . . . الخ . بجانب ما يصيب شخصية التلميذ من شعور بالنقص واليأس ، وقد تضيع عليه سنوات كاملة من عمره مما قد يفوت عليه بعض فرص الحياة .

وقبل أن نبحث العوامل التى تؤدى إلى التأخر الدراسى يجدر بنا أن نفرق أولا بين حالات التأخر التى نصادفها فى الحياة المدرسية وهى حالات الغباء وحالات التأخر التحصيلى وحالات التأخر التعليمى أو الدراسي .

الغباء Dullness :

الطفل الغبى هو الذى يقل ذكاؤه عن غيره من الأطفال العاديين المتفقين معه فى العمر الزمنى بدرجة و إن كانت كبيرة إلا أنها لا تصل إلى الضعف العقلى . فالغباء إذن طبقة من طبقات القدرة العقلية الفطرية العامة أو الذكاء ، ولذا يمكن تشخيصه عن طريق اختبارات الذكاء ومقارنة العمر العقلى بالعمر الزمنى لإيجاد نسبة الذكاء Intelligence Quotient .

$$\text{ونسبة الذكاء} = \frac{\text{العمر العقلى}}{\text{العمر الزمنى}} \times ١٠٠$$

وقد اصطلح على اعتبار من تقع نسبة ذكائهم بين ٦٥ ؟ ٨٥ أغبياء .

وطبيعى أن هذا التأخر العقلى يرجع إلى عوامل وراثية أكثر منها بيئية ، ولذا فليس من السهل التحكم فيه اللهم إلا من ناحية تهيئة البيئة الصالحة لاستغلال القدر الموجود من الذكاء والانتفاع به إلى أقصى حد ممكن .

و بدهىّ أن التلميذ الغبى إذا وجد بين مجموعة من التلاميذ الأحسن منه ذكاء فإنه سوف لا يستطيع أن يسير بسرعتهم فى التحصيل المدرسى ، مما يؤدى به إلى التخلف عنهم ، ولذا نجد من حالات التأخر الدراسى كثيرا من الحالات التى يرجع تخلفها إلى الغباء ، وهؤلاء لا علاج لهم إلا بالتوجيه إلى أنواع ملائمة من المدارس ، أو وضعهم فى فصول يتجانس أفرادها من حيث درجة الذكاء و إعطائهم القدر المناسب من المناهج وطرق التدريس ، إذ أن أمثال هؤلاء ينطبق عليهم قوله تعالى « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » .

غيرأن حالات التأخر الدراسى لا ترجع كلها إلى الغباء فكثيرا ما نصادف تلاميذ عاديين أو ممتازين فى الذكاء ومع ذلك متأخرين دراسيا ، وهؤلاء ينبغى

تحليل ظروفهم وبحث حالاتهم من النواحى الأخرى غير الذكاء لمعرفة أسباب تأخرهم وعلاجه .

التأخر التحصيلى Educational Retardation :

يطلق اصطلاح التأخر التحصيلى على التلميذ الذى يكون مستواه التحصيلى فى المواد الدراسية أقل مما يناسب مستوى ذكائه الفعلى ، ولذا يكون قابلا للتحسن ، أى فى حالة التلميذ الذى لا يستغل ما عنده من ذكاء بالقدر الكافى فيبدو مقصراً ويتخلف عما يجب أن يكون عليه بالنسبة لنفسه ولما لديه من قدرة عقلية .

إذن فالتأخر التحصيلى يتوقف على مقارنة العمر التحصيلى والعمر العقلى للتلميذ لإيجاد النسبة التحصيلية Achievement Quotient .

$$\text{والنسبة التحصيلية} = \frac{\text{العمر التحصيلى}}{\text{العمر العقلى}} \times ١٠٠$$

ويقدر العمر التحصيلى باختبارات التحصيل المقننة Standardised Achievement Tests وهى اختبارات فى المواد المدرسية تختلف فى نوعها عن الامتحانات التقليدية من حيث كونها مكونة من أسئلة أكثر عددا وأقصر فى الإجابة والزمن وأنها بذلك تعتبر عينة أكثر صلاحية لتمثيل معظم أجزاء المادة ، كما أنها لا تخضع فى تصحيحها لعوامل شخصية لأن الإجابات عنها محدودة بناء على سابق تجريبها وثبوت صلاحيتها ، ويحسب العمر التحصيلى بمقارنة الدرجة التى يحصل عليها التلميذ فى الاختبار بالمعايير Norms التى يكون قد سبق تحديدها بالتجريب على العدد الكافى من مدى معين من الأعمار .

أما العمر العقلى فيقدر باختبارات الذكاء كما سبق أن شرحنا .

فإذا أمكن قياس النسبة التحصيلية فى تلميذ ما لمادة ما أو جملة مواد دراسية ووجدنا أن هذه النسبة قريبة من ١٠٠ اعتبر التلميذ عادياً ، أى أن تحصيله يتمشى مع ما لديه من ذكاء ولا يوجد عنده أى تقصير ، أما إذا قلت هذه النسبة عن ٨٥ فإن هذا يدل على وجود التقصير والتأخر الدراسى الذى يستوجب البحث والعلاج ، ومن النادر جداً أن تزيد هذه النسبة عن ١٠٠ ، إذ أن معنى ذلك أن التلميذ يكلف نفسه أكثر من طاقتها كما يحدث أحياناً فى دفع التلاميذ إلى العمل بالعقاب والإجبار وبالدروس الخصوصية والإرهاق بوسائله المختلفة ، وطبيعى أن التلميذ فى هذه الحالة يكون تحسنه الدراسى الأكثر من اللازم على حساب صحته وأعصابه مما يسبب كثيراً من الضرر . ولهذا يصح أن نكون على حذر فى تقدير النسبة التحصيلية التى لا يمكن أن تزيد عن ١٠٠ بخلاف نسبة الذكاء فإنها تتراوح بين أكثر من ١٦٠ وأقل من ٤٠ ، أى أن ١٠٠ هى النسبة المتوسطة وليست النهائية كما فى النسبة التحصيلية .

وبهذا المعنى الاصطلاحى نجد أنه ليس من الضرورى أن يكون الغباء متبوعا بالتأخر التحصيلى وإن كان يتبعه تأخر دراسى بطبيعة الحال . فقد نجد تلميذاً غبياً ولكنه يستغل القدر البسيط الموجود لديه من الذكاء إلى أقصى ما يمكن ، فتكون النسبة التحصيلية عنده قريبة من ١٠٠ ولا يكون عنده تأخر تحصيلى . ولكن غباءه سيجعله متأخراً عن غيره دراسياً إذا وجد بين مجموعة من الأذكياء الذين لا يستطيع مجاراتهم .

التأخر الدراسى Backwardness :

يعتبر التلميذ متأخراً دراسياً إذا ظهر ضعفه بوضوح فى الدراسة عند مقارنته بغيره من التلاميذ العاديين من مثل عمره الزمنى ، سواء أكان ذلك

راجعاً إلى الغباء أو إلى التأخر التحصيلى ، وسواء أكان ذلك التأخر عاما General بحيث يشمل جميع المواد الدراسية ، أو خاصاً Specific بحيث يظهر فى مادة واحدة أو مادتين مثلا .

وينبغى أن يتوقع المدرس أن يجد كثيراً من الإختلافات الفردية بين تلاميذ فصله من حيث التقدم الدراسى وسرعة الفهم والاستجابة ، فهذا أمر طبيعى يرجع إلى اختلاف المواهب والنواحى المزاجية والاجتماعية . . . وعلى المدرس إزاء ذلك أن يدرس تلاميذه جيدا ، وأن يقدم لهم العناية الفردية المناسبة ليضمن مسايرة كل واحد منهم لمجموعة الفصل . غير أن هناك حالات قليلة يصادفها المدرس من آن لآخر ، يكون التأخر فيها واضحاً ومستمرا لدرجة تتطلب الدراسة الشاملة لظروف التلميذ مما يحتاج إلى وقت طويل . وتختلف نسبة وجود هذه الحالات من مدرسة إلى أخرى ومن فصل إلى آخر ، بل ومن مادة إلى أخرى ، حسب الظروف ومبلغ الاهتمام بالعناية الفردية فى التدريس . فالتأخر الدراسى من شأنه أن يزداد و يتضاعف إذا أهمل علاجه خصوصاً فى المواد الدراسية التى تتوقف الدروس الجديدة فيها على القواعد التى يجب التأكد من إتقانها فى الدروس السابقة ، كما فى مادة الحساب مثلا .

ولكن إذا كان التأخر أمرا نسبياً ، فما هى الحدود التى نعتبر عندها التلميذ متأخرا دراسياً بالمعنى الاصطلاحى ؟ ثم كيف نقيس هذا التأخر ؟ يمكن القول بأن التلميذ يكون متأخرا دراسياً فى مادة أو أكثر إذا كان عمره التحصيلى أقل بمقدار سنة ، أو سنة ونصف ، عن المستوى التحصيلى والعقلى للتلاميذ العاديين من نفس العمر الزمنى للتلميذ . ولكن القياس بالفرق فى السنوات لا يعتبر قاعدة سليمة ، إذ أن أثر الفرق يختلف من عمر إلى آخر ، فتأخر سنة ونصف عند تلميذ عمره الزمنى ٢٠ سنة ليس له من الخطورة ما نجده عند تلميذ

فى سن ٧ سنوات مثلا . ولأجل هذا قد اصطلح على تقدير التأخر الدراسى بقياس النسبة التعليمية Educational Quotient .

$$\text{والنسبة التعليمية} = \frac{\text{العمر التحصيلى}}{\text{العمر الزمنى}} \times ١٠٠$$

فاذا قلت هذه النسبة عن ٨٥ اعتبر التلميذ فى حالة تأخر دراسى يستحق العلاج الخاص . ويقدر العمر التحصيلى كما سبق أن قلنا باختبارات التحصيل المدرسى المقننة — سواء أكانت لمادة واحدة أو لمجموعة من المواد — ومقارنة نتائجها بالجداول المعيارية التى يبين بها العمر التحصيلى المقابل لكل درجة .

و بدهى أن من الممكن للنسبة التحصيلية أن تزيد كثيرا عن ١٠٠ كما فى حالات التلاميذ المتفوقين فى الذكاء العام والتحصيل المدرسى أيضاً ، حيث يكون هؤلاء متقدمين كثيرا بالنسبة لعمرهم الزمنى .

ومما سبق يتبين أن كل تلميذ غبى أو متأخر تحصيلياً يكون متأخراً دراسيا ، ولكن قد يكون التلميذ متأخراً دراسيا وليس متأخراً تحصيلياً . كما أنه ليس من الضرورى أن يكون المتأخر دراسياً من الأغبياء ، فقد يكون ذكيا ولكن ظروف حياته الأخرى أو غيرها من العوامل هى التى تسبب ما عنده من التأخر .

أسباب التأخر الدراسى

ترجع حالات التأخر الدراسى إلى اشتراك عدد من العوامل المتداخلة التى تختلف فى نوعها وتأثيرها من تلميذ إلى آخر ، ولهذا ينبغى فى تشخيص التأخر عند تلميذ ما أن تدرس حالته دراسة فردية خاصة .

و إذا حاولنا تصنيف أسباب التأخر الدراسى بصفة عامة فإننا نجد أن بعضها يتعلق بالبيئة ، ومنها ما يكون راجعاً لعوامل منزلية وما يكون راجعا

لعوامل مدرسية ، كما أن بعضها يتعلق بالتلميذ نفسه مما يرجع إلى عوامل جسمية أو عقلية .

أولا : العوامل المنزلية الاجتماعية :

وتشمل الظروف المادية ، والمستوى الثقافى للأسرة ، والحالة الوجدانية والخلقية التى تسود الجو المنزلى ، ثم الرفقاء والأصدقاء وغيرهم ممن يحيطون بحياة التلميذ .

(ا) ويمكن اعتبار الفقر من أقوى أسباب التأخر الدراسى فى مدارسنا المصرية ، نظرا لما يتبعه من نقص التغذية وقلة وسائل راحة التلميذ وما يضطر إليه أحيانا من القيام بخدمات وأعمال غير دراسية ليساهم بها فى تعويض النقص المادى فى الأسرة . وكل هـذا يرتبط بضعف الصحة ونقص القوة والطاقة الحيوية التى يوجهها التلميذ للعمل المدرسى .

(ب) ويتصل بذلك أيضاً عدم توافر الجو الثقافى الذى يساعد التلميذ على زيادة معلوماته العامة وتقوية تحصيله المدرسى ، فالتلميذ الفقير لا يجد فى منزله فرصة لقراءة الصحف أو المجلات ، أو الذهاب إلى السينما أو حتى سماع الراديو أحيانا ، بينما يستطيع زملاؤه من الأغنياء أن يقرأوا الكتب الأدبية وأن ينتفعوا بالجو الثقافى الذى يساهم فى تكوينه الأبوان المثقفان فى أغلب الأحيان ؛ كما أن التلميذ الفقير لا يجد فرصا كثيرة للرحلات والزيارات التى تزيد من خبرته العامة .

(ج) ويجب أن نؤكد أن عدم صلاحية البيئة المنزلية الاجتماعية لا ترجع إلى الفقر وحده ، فهناك بيوت يكون مستواها المادي فوق المتوسط أو ممتازا ولكن يكون الجو المنزلى فيها مملوءا بالخلافات العائلية والاضطرابات العاطفية التى تؤدى إلى عدم الاستقرار والاطمئنان الذى من شأنه أن يؤدى إلى اضطراب

نفسية التلميذ ، مما يؤثر على إقباله على الدرس والتحصيل . ومن أمثلة ذلك حالات التأخر الدراسى التى تكون من أسبابها الرئيسية ما يلقاه التلميذ من قسوة فى معاملة زوجة أبيه أو زوج أمه ، أو تنازع الأبوين على احتضان الإبن بعد الإنفصال بالطلاق . . وغير ذلك من ضروب التفكك العائلى وفقدان التوازن العاطفى .

هذا وقد يؤدى قلق الآباء الزائد عن الحد على سير التلميذ الدراسى إلى الإفراط فى إثقاله بالدروس الخصوصية مما يسبب كراهيته للدراسة ، و إضعاف قدرته على الاعتماد على النفس ، مما يضاعف التأخر الدراسى فى كثير من الحالات .

(د) وهناك من حالات التأخر الدراسى ما تكون أسبابها متصلة اتصالا وثيقاً بعلاقة التلميذ بأخوته أو أفراد المنزل من أقارب أو خدم ، وكثيرا مايكون التأخر نتيجة صحبة السوء وتأثير الزملاء والأصدقاء على التلميذ بما يغير اتجاهه نحو عمله المدرسى ، وما يرتبط بذلك من الوسائل التى يقضى بها أوقات فراغه .

ثانياً : العوامل المدرسية :

وأحيانا تكون أسباب التأخر الدراسى راجعة إلى عوامل فى المدرسة ذاتها كمواظبة التلميذ على الانتظام فى الدروس ، أو سوء التدريس وفشل المدرس فى عمله ، أو سوء التنظم المدرسى بصفة عامة .

(ا) فالتغيب عن المدرسة وخصوصا لفترات طويلة متقطعة أو مستديمة من شأنه أن يفوت على التلميذ كثيرا من الدروس ، و يعوقه عن فهم المعلومات الجديدة التى تبنى على نقط سابقة ؛ ولهذا يتجه البحث فى هذه الحالات إلى معرفة أسباب عدم المواظبة وتلافيها ، ومن هذه الأسباب مايكون رغم إرادة

التلميذ كالمرض ، أو اضطرار الأهل لحجز التلميذ أحياناً لمعاونتهم فى العمل كما فى موسم الحصاد فى الريف ، أو كثرة تنقل الآباء من بلد إلى آخر وما يتطلبه تحويل التلميذ للمدرسة الجديدة من وقت ؛ كما أن هناك أسبابا أخرى أكثر خطورة مثل كراهية التلميذ للمدرسة وهروبه منها ، أو اتفاقه مع بعض الزملاء على ارتياد دور السينما وترك المدرسة بسبب شعور التلميذ بالفشل وعدم القدرة على مسايرة غيره من التلاميذ . . كما أن تشدد المشرفين على الحضور والغياب وما يلجأون إليه من ضروب القسوة والعقاب أحيانا قد يؤدى إلى نتائج عكسية .

(ب) ويميل بعض المربين إلى أن يضعوا فى المرتبة الأولى من أسباب التأخر الدراسى عدم كفاية التدريس حيث تلقى المسئولية على المدرس وطريقته أو المادة وعدم ملاءمتها للتلميذ . ولكن السبب الأكثر احتمالا من حيث المدرس هو عدم عنايته واهتمامه الكافى بكشف وتشخيص حالات التأخر الدراسى مبكرا و إعطائها العلاج المناسب . كما أن تغيير المدرسين بكثرة وعدم قدرة بعض التلاميذ على مسايرة طريقة المدرس الجديد — التى قد تختلف عن طريقة سابقه — قد تؤدى إلى التأخر .

هذا وتلجأ بعض الإدارات التعليمية إلى نقل المدرسين الصالحين من المدارس الابتدائية إلى الثانوية ، أو إلى أن تعهد إليهم بالتدريس فى الفرق التى تعقد لها امتحانات عامة مما يعرض التلاميذ الآخرين لعدم الانتفاع بالمدرس الكفء فيكثر بينهم التأخر الدراسى .

(ح) وكثيرا ما تؤثر الروح المدرسية العامة ، وما يسودها من حزم فى الإدارة والتنظيم فى سير التلميذ الدراسى ، فالمدارس التى تتيح المناسبات والفرص للتلاميذ لكى يشعروا بالتفوق والنجاح الذى يزيد ثقتهم بأنفسهم لا تكثر

فيها حالات التأخر . إذ أن الشعور بالنجاح فى ذاته يوقد الحماس ويوقظ الأمل مما يساعد على بذل الجهد .

وقد يكون فساد نظم الامتحانات وطريقة النقل من فرقة إلى أخرى سببا جوهريا للتأخر الدراسى ، فليس أضر بالتلميذ من نقله إلى فرقة أعلا من مستواه الحقيقى سواء أكان ذلك بسبب الاعتماد على امتحان واحد تتدخل فيه عوامل الصدفة وغيرها ، أو بسبب الوسائل غير المشروعة التى قد يلجأ إليها أحيانا كالغش وغيره . ولهذا قد اتجه رأى المربين إلى تعديل نظم الامتحانات بجعل النقل مبنيا على عمل التلميذ طول العام الدراسى وعلى معرفة مبلغ استعداده للسير بنجاح فى الدراسة القادمة .

ثالثا : العوامل الجسمية :

وهى العوامل المتعلقة بالنمو والصحة العامة ، أو عاهات الحواس المختلفة ، أو الاضطرابات الحركية التى تتضمن عيوب النطق وصعوبات الكلام ، واستعمال اليد اليسرى بدلا من اليمنى وما يترتب عليه .

(١) فكثيرا ما يكون اضطراب النمو الجسمى ذا تأثير مباشر فى النمو والنضوج العقلى ، كما أن ضعف البنية والصحة العامة من أشد العوامل تأثيرا فى إحداث التأخر الدراسى ، نظرا لما يتبع ذلك من القابلية للتعب ، وعدم القدرة على بذل الجهد ، والتعرض للإصابة بنوبات الزكام والصداع والحميات وغيرها من المضايقات الصحية .

وغنى عن الذكر ما تسببه الإصابة بالأمراض الطفيلية والمزمنة . . . والاضطرابات الوظيفية لأجهزة الجسم ، وعدم اتزان إفرازات الغدد الصماء ، وكذلك الإصابة بالصرع Epilepcy . . . الخ . من أثر يؤدى إلى التعطيل عن مواصلة العمل المدرسى مما يؤدى إلى التأخر .

(ب) أما عاهات الحس فتعتبر مسئولة عن عدد كبير من حالات التأخر الدراسى ، وخصوصا الحالات التى لا تكون فيها هذه الحالات واضحة لدرجة تسمح بفصلها فى مدارس خاصة ، مثل حالات ضعف البصر الجزئى Partially Sighted ، وكذلك حالات ضعف السمع الجزئى Partially Deaf ، التى لا يفطن إليها المدرس . فقد يكون جلوس هؤلاء التلاميذ فى أماكن غير مناسبة بالفصل سببا أساسيا لتعطل إدراكهم وتأخرهم . وهناك أنواع مختلفة للعلل البصرية والسمعية ، ففى حالة البصر نجد طول النظر أو قصره وعمى الألوان Colour Blindness . . وغيرها ، وفى حالة السمع نجد بجانب درجات ضعف السمع عدم القدرة على تمييز النغمات الدقيقة High - note Deafness وغيرها من أنواع الضعف التى تتطلب فى تشخيصها الاستعانة بأجهزة وتجارب فنية خاصة .

وهناك حالات أكثر تعقيدا مما ترجع إلى اضطرابات نيورولوجية تتصل بالمراكز العصبية للحواس ، وعدم التوافق الحسى الإدراكى الحركى ، كحالات الكتابة المعكوسة Mirror Writing وحالات عمى الكلمات Word Blindness وهى اضطرابات سمعية فى إدراك أو فهم بعض الحروف أو أشكال الكلمات والتعبير عنها بالكتابة ، ويكون لهذه الأنواع من العاهات آثار بعيدة فى التأخر الدراسى الذى يظهر بوضوح فى القراءة والكتابة .

(حـ) ومن أهم الإضطرابات الحركية ما يصيب اللسان وأجهزة الكلام ، ثم التوافق الحركى اليدوى الذى يظهر أثره فى التأخر الدراسى فى الرسم والأشغال اليدوية والكتابة . أما عيوب الكلام وصعوبات النطق وما ترتبط بها من الاضطرابات الانفعالية والمزاجية فمن شأنها أن تعوق التلميذ عن التعبير الصحيح ، كما تسبب له مضايقات زملائه ومعايرتهم له مما يصرف جزءا كبيرا

من طاقته فى التفكير فى هذه المشكلة والانصراف عن الدروس والتأخر فيها . وكثيرا ما يصاحب عيوب النطق تأخر كبير فى القراءة والأعمال المدرسية الشفوية ، ويكثر ذلك فى البنين أكثر من البنات .

وأحيانا يكون استعمال التلميذ ليده اليسرى بدلا من اليمنى فى الكتابة سببا فى خلق صعوبات نفسية عنده ، نتيجة المحاولات العنيفة التى يلجأ إليها الأهل لإقلاعه عن ذلك ، وما يلابس هذه المحاولات من عناد مما يضاعف المشكلة ويحيطها باضطرابات مزاجية ، وبسبب تعثر التلميذ بين استعمال اليد اليسرى تارة واليمنى تارة أخرى يحدث كثير من التعطيل والاضطراب الحركى ، الذى يبدو فى رداءة الخط والتأخر الدراسى فى الأعمال الكتابية فى عدد غير قليل من الحالات .

رابعاً : العوامل العقليـة :

وأهم هذه العوامل القدرة المعرفية الفطرية العامة أو الذكاء ، ثم حالة التلميذ من حيث استعداداته وقدراته العقلية الخاصة ، وكذلك حالته المزاجية والخلقية وما فيها من قوة أو ضعف أو اضطراب .

(ا) فنقص الذكاء هو أقوى الأسباب التى تبدو فى حالات التأخر الدراسى الذى يستعصى علاجه ، أما إذا كان الذكاء عاليا فإن الأمل يكون كبيرا فى قدرة التلميذ على اللحاق بزملائه إذا عولجت الأسباب التى أدت إلى التأخر . وقد وجد بيرت Burt أن حوالى ١٠ ٪ من مئات حالات التأخر الدراسى التى قام ببحثها ترجع إلى الغباء الذى يكون وحده كافيا لإحداث التأخر .

وتختلف أهمية عامل الذكاء للنجاح فى مواد الدراسة المختلفة بحسب اعتمادها عليه أو على غيره من القدرات العقلية الأخرى .

فقد وجد بيرت أن معامل الارتباط بين الذكاء والتحصيل المدرسى العام حوالى ٧٤ر٠ وبين الذكاء والإنشاء ٦٣ر٠ وحوالى ٥٥ر٠ للمسائل الحسابية ؟ ٥٤ر٠ للقراءة ؟ ٥٢ر٠ للإملاء ؟ ٤١ر٠ للحساب الآلى ، ويهبط معامل الارتباط إلى ٢١ر٠ للخط ؟ ١٨ر٠ للأشغال اليدوية ؟ ١٥ر٠ للرسم .

(ب) أما القدرات والمواهب الخاصة فيظهر أثرها بوضوح أكثر فى حالات التأخر الدراسى فى مادة معينة Specific Backwardness ، حيث لا يتوافر الاستعداد العقلى الكافى للسير بنجاح فى دراستها ؛ ومن أمثلة ذلك تأخر عدد من البنات أكثر نسبيا من البنين فى الحساب والمواد التى تتطلب القدرات الرياضية ، وكذا المواد العملية التى تتطلب القدرات الميكانيكية ، بينما يتأخر عدد من البنين أكثر نسبيا من البنات فى اللغات والمواد التى تتطلب القدرات اللفظية .

ومن الثابت أن هناك اختلافات فردية بين التلاميذ فى قدرات الذاكرة والتصور التى تؤثر فى طريقتهم فى الحفظ والدراسة ، ولذا يحدث أحيانا أن يكون تغيير أسلوب التدريس بالاستعانة بالصور ووسائل الإيضاح البصرية لازما لعلاج التأخر الدراسى عند التلاميذ البصريين Visualisers الذين يكون تأخرهم راجعا لعدم ملاءمة الطريقة السمعية لهم ، بينما تكون هذه الطريقة ملائمة لغيرهم من التلاميذ السمعيين Audiles .

ولتشخيص التأخر الدراسى وعلاقته بعدم توافر الاستعدادات العقلية الخاصة ينبغى تحليل المواد الدراسية إلى القدرات العقلية التى تتدخل فى دراستها[1] وبحث نواحى ضعف التلميذ فى هذه القدرات لمعرفة سبب تأخره ، فقد وجد أن مادة الهندسة مثلا تتطلب مستوى معينا من الذكاء وقدرات

---

(١) انظر رسالة المؤلف للدكتوراه فى تحليل القدرات الرياضية .

التفكير Reasoning والقدرة على التصور البصرى Visual Imagery والإدراك المكانى Space Perception وغيرها . وأن السير فى تعلم القراءة بنجاح يتطلب سلامة الحواس وجهاز النطق ، وقدرات الإدراك ودقة الملاحظة والقدرات التى تؤدى إلى سرعة التعرف والفهم . . بجانب الاتزان الانفعالى وغير ذلك .

(ح) أما النواحى المزاجية والصفات الخلقية فكثيرا ما تكون عاملا أساسيا يشترك فى معظم حالات التأخر الدراسى ، ولهذا ينبغى دائما استكمال بحث هذه النواحى لمعرفة مدى تحفز التلميذ وحماسه للعمل وما عنده من طاقة انفعالية تساعد على إقباله عليه ، فقد تبين أن عدم الاتزان المزاجى Temperamental Instability وحالات القلق والاضطراب العصبى تؤثر كثيرا فى أعمال التلاميذ التى تتطلب الدقة وتركيز الانتباه ، ولذا يكثر تأخر من يتصفون بهذه الصفات فى الحساب ويكون خطهم رديئا وأعمالهم ينقصها الترتيب والنظام .

وغنى عن الذكر أن النجاح المدرسى يتطلب وجود الصفات الخلقية الأساسية مثل المثابرة والأمانة والاعتماد على النفس ، والبعد عن الخداع والغش والاتكال على الغير .

الأهمية النسبية لأسباب التأخر الدراسى :

تختلف أهمية العوامل السابقة لا من حيث كثرة انتشارها فحسب ، ولكن أيضا من حيث قوة تأثيرها فى إحداث التأخر ، إذ أن النجاح المدرسى يتأثر بهذه العوامل بدرجات متفاوتة .

وقد وجد بيرت Burt فى بحثه لعدد كبير من حالات التأخر الدراسى

بلندن وبرمنجهام ، والذى نشره فى كتابه « الطفل المتأخر » أن الذكاء هو أكثر العوامل ارتباطا بالتحصيل الدراسى ، فمعامل الارتباط بينهما ٧٠ ، فإذا استبعد أثر الذكاء فإن معامل الارتباط بين التأخر الدراسى وضعف بعض القدرات الخاصة كالتفكير والتذكر والانتباه يكون أقل من ذلك نسبيا ، وإن كان عاليا نوعا بين التحصيل والذاكرة البعيدة المدى (٥٠ إلى ٦٠) . ويلى ذلك فى الأهمية — على هذا الأساس — عدم المواظبة ٤٥٠ ، ثم بعض حالات الانحراف الخاصة كضعف السمع واضطرابات النطق — وهى وإن تكن نادرة الحدوث نسبيا — إلا أن آثارها تكون بعيدة وواضحة فى التأخر ، حيث يصل معامل الارتباط بينهما حوالى ٤٠ ، وكذلك نجد أن معامل الارتباط بين التأخر الدراسى والتأخر فى النمو الجسمى العام حوالى ٣٠ ، ومع الفقر الشديد بين ٢٥٠ و ٣٠٠ ، ويلى ذلك فى الأهمية حالات ضعف الصحة وسوء التغذية وتتابع الاصابة بالأمراض ، حيث يكون معامل الارتباط بين ٢٠ و ٢٥٠ ، أما فى حالات الانحراف المزاجية كعدم الاتزان المزاجى والقلق والنورستانيا فيقرب معامل الارتباط من ٢٠ ، وأخيرا نجد معامل الارتباط بين العلل البصرية والتأخر لا يزيد كثيرا عن ١٥٠

على أن هذه النتائج يجب أن تؤخذ بشىء من الحرص لأنها مستمدة من بحث خاص على مجموعة معينة من تلاميذ المدارس الانجليزية الذين تختلف ظروفهم كثيرا عن تلاميذ المدارس المصرية ، كما أن وجود الارتباط فى ذاته لا يتبعه حتما وجود علاقة سببية بين الظاهرتين ، فمعامل الارتباط قيمة إحصائية أما تفسيرها فيترك للقرائن الأخرى .

وما أحوجنا فى مصر إلى الكثير من أمثال هذا البحث لنبدأ بداية علمية فى دراسة هذه المشكلة التعليمية الاجتماعية على أسس سليمة .

وقد قام الدكتور عبد العزيز القوصى بدراسة تحليلية لحوالى ثلاثين حالة من حالات التأخر الدراسى التى بحثت فى العيادة النفسية بمعهد التربية للمعلمين بالقاهرة ، وأورد نتائجها فى كتابه « أسس الصحة النفسية » كما أشار إلى مصاحبات التأخر الدراسى ومضاعفاته مثل الهروب وشرود الذهن وأحلام اليقظة ، كما وضح فى بعض الحالات علاقة التأخر الدراسى بانحراف الأحداث وجرائمهم ، وبالخروج على النظام والثورة ضد المدرسة .

علاج التأخر الدراسى

يمكن فى ضوء ما سبق شرحه عن أسباب التأخر أن نوجه النظر إلى ما يجب عمله لتقليل حالاته وعلاجها ، وذلك بالاهتمام بالنواحى الوقائية والنواحى التشخيصية وطرق العلاج ، التى يجب أن ترسم خططها وتحدد وسائلها بالإفادة من المختصين فى علم النفس كمستشارين لإدارات التعليم فى المناطق المختلفة .

أولا : النواحى الوقائيـة :

وتشمل الاهتمام بالفروق الفردية سواء من حيث التوجيه التعليمى وبناء سياسة التعليم العامة على أساس سليم ، أو من حيث الاهتمام بالفروق الفردية فى كل مدرسة ، وإعادة تنظيم المناهج وطرق التدريس وإعداد المدرسين على أساس مراعاة هذه الفروق ، ثم العناية بالنواحى الطبية والاجتماعية وتعاون المدرسة والمنزل لصالح التلميذ .

(١) ويقصد بالتوجيه التعليمى Educational Guidance توجيه كل تلميذ إلى نوع التعليم المناسب لاستعداداته العقلية ، ولذا يجب أن تتنوع سبل التعليم بحيث تناسب مراتب القدرات العقلية . وقد فطنت لذلك انجلترا

فوضعت لمرحلة التعليم الأولى من التشريعات والنظم ما يكفل إيجاد ضعاف العقول فى مدارس ومؤسسات خاصة ، ثم أنشئت مدارس خاصة لمن يحتاجون إلى علاج تربوى من نوع مناسب لحالاتهم كذوى العاهات من العميان وضعاف البصر ، والصم والبكم وضعاف السمع ، والمصابين بالصرع ، ومن يكون عندهم عيوب فى النطق ، والأغبياء ممن يظهر عجزهم عن متابعة الدراسة مع العاديين .

أما مرحلة التعليم الثانوى فنجد فيها ثلاثة سبل : أولها المدارس النظرية Grammar التى لا يسمح بالالتحاق بها إلا لمن يكون استعدادهم العقلى عالياً بحيث يستطيعون متابعة الدراسة التى توصل إلى التعليم الجامعى ليكون من هؤلاء قادة الفكر ؛ وثانيها المدارس العملية Technical التى لا يسمح بالالتحاق بها إلا لمن يكون ذكاؤهم وقدراتهم العملية الخاصة على درجة تجعلهم قادرين على التفوق فى الأعمال الصناعية والمهن الفنية ليكون من هؤلاء قادة الصناعة والتجارة والزراعة ؛ أما السبيل الثالث فهو المدارس الثانوية الحديثة Modern التى يدخلها الباقون ممن انتهوا من مرحلة التعليم الأولى ومن تكون قدراتهم العقلية محدودة بحيث لا تتسع لهم مدارس النوعين السابقين . وترمى الدراسة فى هذا النوع من المدارس إلى تكميل التعليم الأساسى بما يمهد لخروج تلاميذها إلى الحياة عند سن الخامسة عشرة أو السادسة عشرة ليكونوا طبقة العمال والصناع الكادحين .

وطبيعى أن تختلف المناهج وطرق التدريس بما يناسب كل نوع من أنواع هذه المدارس ، وبهذا يجد كل تلميذ نفسه فى الطريق الذى أهلته له الطبيعة ، ويكون مع زملائه فى وسط متجانس من حيث المستوى العقلى ، ولذا يقل احتمال ظهور التأخر الدراسى فى مثل هذا النظام التعليمى .

(ب) وفى داخل كل مدرسة أيا كان نوعها ينبغى الاهتمام بالاختلافات الفردية بين تلاميذ كل فرقة ، وتقسيم التلاميذ إلى فصول متجانسة من حيث السن والذكاء والقدرة التحصيلية بقدر الإمكان ، وتنظم الدراسة بحيث يسير تلاميذ كل فصل بسرعتهم الخاصة ، وبطرق التدريس التى تناسب مستواهم ، كما يصح أن يقل عدد تلاميذ الفصول الأضعف فى قدراتهم لزيادة حاجتهم إلى الاهتمام الفردى ، ويجب أن يعهد بالتدريس لهم إلى مدرسين أكفاء فلا يصح أن يعهد بهم ناظر المدرسة إلى المدرسين القليلى الخبرة أو كبار السن ، فالعناية بهؤلاء التلاميذ يجب ألا تقل — إن لم تزد — عن العناية بالتلاميذ الأقوياء والأذكياء .

وقد رأيت بعض المدارس الثانوية بانجلترا تهتم بهذه الناحية كثيرا لدرجة أنها كانت تعمد إلى تقسيم تلاميذ الفرقة إلى شعب تختلف من مادة إلى أخرى بحيث يقسمون تقسيما خاصا فى حصص الرياضة ، وتقسيما آخر فى حصص اللغة بحسب تجانسهم فى كل مادة . وكانت ترتب دروسا إضافية للشعب الضعيفة بحيث تضمن سير الجميع فى مستوى واحد .

(ﺣ) وفى جميع الأحوال يجب أن تعنى المدرسة بالنواحى الصحية والاجتماعية للتلاميذ ، وأن ينتظم الكشف الطبى الدورى عليهم جميعا ، ويبادر بعلاج أى انحراف يكتشف بدون إبطاء ، وينبغى أن يكون طبيب المدرسة ملما لا بأمراض الطفولة فقط بل بالطريقة التى تؤثر بها هذه الأمراض على نمو التلاميذ العقلى وقدرتهم التحصيلية أيضا .

وقد خطت مصر فى ذلك خطوات طيبة فأنشأت الوحدات الصحية المدرسية مما سيؤدى إلى رفع المستوى الصحى للتلاميذ ويقلل من احتمال تأخرهم الدراسى .

وعلى الرغم من أن عددا كبيرا من حالات التأخر ترجع إلى عوامل النقص فى القدرات العقلية التى لا يكون المنزل مسئولا عنها ، إلا أن نسبة كبيرة من هذه الحالات يزداد أثر هذا النقص فيها بالعوائق التى تسببها البيئة المادية والاجتماعية فى المنزل . ولهذا كان البحث الاجتماعى ضروريا فى جميع حالات التأخر الدراسى ، ومن أجل هذا أدخلت مصر أخيرا نظام المختصين الاجتماعيين بالمدارس لأنهم بمقتضى إعدادهم الفنى الخاص يستطيعون العمل على ضمان تعاون المنزل والمدرسة ، وتوجيه النصح إلى الآباء ليعاملوا أولادهم المعاملة التى تؤدى إلى تحسين مستواهم الدراسى ، وإرشادهم إلى ضرورة الإشراف المنزلى على التلميذ فى أداء واجباته المنزلية وما يعطيه المدرس من نصائح أو بطاقات علاجيه تساعد على علاج التأخر الدراسى .

ثانيا : النواحى التشخيصية :

وتشمل ما يقوم به المدرسون والنظار والمفتشون والإدارات التعليمية من اختبارات عقلية ودراسية وغيرها لأغراض التوجيه التعليمى ، أو تشخيص حالات التأخر التى تظهر فى صورة جمعية ببعض المدارس أو الفصول ، أو تشخيص حالات التأخر الفردية فى مادة أو أكثر من مواد الدراسة .

(ا) أما اختبارات التوجيه التعليمى فتنظمها الإدارات التعليمية بقصد اختبار مواهب التلاميذ والوقوف على مستوياتهم التحصيلية ، بقصد المفاضلة بينهم فى الالتحاق بأنواع التعليم المختلفة ، وتوجيه كل منهم إلى الطريق الذى يناسبه ؛ وتلجأ وزارة المعارف حاليا لتحقيق هذا الغرض إلى الامتحانات العامة ، ولكن من الواجب أن تستبدل الامتحانات التقليدية بإجراء اختبارات للذكاء والقدرات العقلية الخاصة ، وكذا اختبارات مقننة للتحصيل المدرسى فى مواد

الدراسة المختلفة ، بجانب ما يقدمه المدرسون من تقارير عن حالات تلاميذهم فى ضوء ما يكونوا قد قاموا به من تسجيلات فى بطاقة التلميذ أثناء الأعوام الدراسية الماضية .

(ب) وأما اختبارات التشخيص الجمعية فيقصد بها ما يقوم به المفتشون والنظار والمدرسون أحيانا للوقوف على المستوى التحصيلى للتلاميذ ، لأغراض إرشاد المدرسين وتوجيههم إلى أساليب العلاج المناسبة لما يظهر من حالات التأخر الدراسى . ويستعان باختبارات الذكاء هنا لمعرفة الحالات التى يرجع تأخرها إلى الغباء ولا يكون المدرس مسئولا عنها ، كما يستعان بالاختبارات التحصيلية فى مواد الدراسة المختلفة لمعرفة المادة التى يكثر فيها الضعف وتتطلب المزيد من الاهتمام .

وهذا النوع من التشخيص يأخذ أحيانا شكل معاينات واسعة Surveys لتحقيق أغراض علمية أو إدارية ، كالبحث الذى قام به بيرت Burt فى مدارس لندن و برمنجهام ، وكان له أثر كبير فى لفت النظر إلى مشكلة التأخر الدراسى .

وكثيرا ما يتضح من مثل هذه الاختبارات التشخيصية ضعف المستوى فى إحدى المدارس أو الفصول بشكل يستوقف النظر ، فتكون أسبابه راجعة إلى ظروف مدرسية خاصة ، كعدم كفاية التدريس أو عدم معرفة المدرس بأصول طرق التدريس الخاصة بمادته . ومن أمثلة ذلك حالة أحد الفصول بمدرسة ابتدائية تبين تأخر تلاميذه فى مادة الحساب وحدها ، وتبين أن السبب كان يرجع إلى تسرع المدرس فى الانتقال بالتلاميذ إلى دراسة القسمة المطولة قبل إتقان ما سبقها من العمليات الحسابية ، فبرغم أن التلاميذ

كانوا يحفظون جدول الضرب جيدا إلا أنهم كانوا يبطئون كثيرا فى عمليات الجمع والطرح ، وتبين أن ذلك يرجع إلى ثبوت عادة العد على الأصابع عندهم ، وعدم حفظهم لتشكيلات الجمع والطرح الأولية ، وكان العلاج قائما على الرجوع بالتلاميذ جميعا إلى مرحلة التدريب على عمليات الجمع والطرح البسيطة ، وتخليصهم من عادة العد على الأصابع التى لم يفطن المدرس إلى خطورتها .

(جـ) أما اختبارات التشخيص الفردية فيقصد بها ما يقوم به المدرس من آن لآخر من تصميم اختبارات خاصة لتلاميذ فصله ، لمعرفة نواحى الضعف عندهم ومتابعته لعملية التشخيص ، بتصميم اختبارات فردية خاصة بكل تلميذ لمعرفة تفاصيل نقط الضعف عنده ، حتى يبنى علاجه على أساسها .

وتفيد هذه الاختبارات كثيرا فى حالات الدراسة الفردية فى العيادات النفسية ، وفى حالات إعطاء الدروس الخصوصية للتلميذ الضعيف ، حيث يتناول التشخيص خطوات متتالية ترمى إلى تحديد نقط الضعف التفصيلية .

وواضح أن مثل هـذه الاختبارات الفردية تحتاج إلى جهد خاص من المدرس لأنها ستختلف من تلميذ إلى آخر . ولـكنها فى نظرى أهم عمل المدرس حيث يجب أن تبنى عليها الواجبات المنزلية والبطاقات العلاجية وغير ذلك من وسائل العلاج الفردى للتأخر الدراسى .

ثالثاً : الطرق العلاجية :

فإذا انتهينا من خطوة التشخيص ودراسة الأسباب وجب أن ننتقل إلى أساليب العلاج التى تقع أولا وأخيراً على عاتق المدرس ، وإن كان من الممكن أن يتعاون معه جهات أخرى . ففى كل الحالات ينبغى أن يرتب المدرس لتلاميذه سجلات منظمة يتبين منها نتائج التشخيص وخطوات العلاج ومدى

التقدم أو التأخر أثناء سير التلميذ فى الدراسة . ويمكن أن يتم هذا العلاج عن طريق المدرس نفسه ، أو عن طريق اشتراك الوالدين وتعاون المنزل ، أو بتحويل التلميذ إلى العيادة النفسية التربوية إذا كانت المشكلة أكثر تعقيدا .

(ا) فأما واجب المدرس فى داخل الفصل فهو العمل على توجيه العناية الفردية للتلميذ الضعيف ، وإعطائه من التمرينات العلاجية بطريقة البطاقات ما يمكنه من اللحاق بزملائه . وفى بعض الأحيان يكون من المفيد إعطاء التلميذ وحده أو مع غيره ممن يشتركون معه فى التأخر بعض الدروس الإضافية كوسيلة تكميلية لعمل المدرس فى الفصل ، كما يحدث فى حالة التلاميذ الذين تفوتهم بعض الدروس لأسباب قهرية .

ويساعد المدرس فى عمله العلاجى استغلاله للنواحى التى يبرز فيها التلميذ وتشجيعه على التقدم وإشعاره بقدرته على النجاح حتى لا يستسلم لليأس ، وفوق ذلك كله ما يسود علاقتهما من روح العطف والتعاون .

(ب) وأحيانا يكون من الضرورى تكليف التلميذ ببعض الواجبات المنزلية التى يساعد أداؤها بانتظام على علاج التأخر ، ويتوقف نجاح هذه الطريقة على مدى تعاون الآباء فى المنزل ، وفى بعض الحالات يكون من الجائز السماح للتلميذ بأخذ بعض الدروس الخصوصية بما يعوض ما فاته من الدروس ، ولكن ينبغى الحرص الشديد فى السماح بمثل هذه الدروس فلا يصح إعطاؤها إلا للتلاميذ ذوى الاستعداد العقلى والجسمى الكافى لاحتمالها ، أما ما يعمد إليه بعض الآباء من فرض هذه الدروس على أولادهم بسبب وبغير سبب فإنه يؤدى إلى كثير من الضرر ، فالتلميذ الذى يتعود الدروس الخصوصية يشب قليل الثقة بنفسه ميالا للاتكال على غيره ، بحيث لا يستطيع السير

فى التعليم بدون هذه الدروس . بل كثيرا ما يؤدى إرهاق التلميذ بالدروس الخصوصية إلى كراهية التعليم والانصراف عن الانتباه للدروس اعتمادا على المدرس الذى سيعيد له شرح ما فاته منها . وللدروس الخصوصية أخطار أخرى كثيرة ولذا لا يصح تشجيعها إلا فى الحالات النادرة .

(ج) وقد يكون التأخر الدراسى مرتبطا بانحرافات مزاجية أو مضاعفات أخرى معقدة ، وفى هذه الحالات يصبح من الضرورى لعلاج التأخر الالتجاء إلى العيادات النفسية التربوية التى تقوم بدراستهم دراسة فردية كاملة وتقترح لهم العلاج المناسب ، ويلحق بهذه العيادات فى أغلب الأحيان فصول علاجية خاصة Remedial Classes حيث يعهد فيها إلى مدرسين مختصين بواجب العلاج فيعاونوا بذلك المدرس فى عمله .

وتفيد هذه العيادات خصوصا فى حالات أمراض الكلام وما يصحبها من تأخر فى القراءة ، وحالات التأخر الدراسى المصحوب بمشكلات أخرى فى السلوك .

وتهتم معاهد إعداد المعلمين التقدمية بتمرين طلابها على التدريس العلاجى للتلاميذ المتأخرين دراسياً ، بأن تهيىء لهم فرصة العمل فى العيادات النفسية التربوية ، والتدريب العملى فى فصول التأخر الدراسى .

ومن أمثلة ذلك ما قام به معهد التربية فى برمنجهام إذ أنشأ قسما خاصا لعلاج التأخر الدراسى وجعله مركزا ملحقا به بمثابة محطة للبحوث التربوية ولتمرين الطلاب .

مراجع الفصل السادس

1 . Baker : Introduction to Exceptional Children.

2 . Barakat, M. K : A Factorial Study of Mathematical Abilities. B. J. Psy. Stat. Sec. Vol. IV, Part III, Nov. 1951.

3 . Burt : The Subnormal Mind.

4 . Burt : The Backward child.

5 . Fernald : Remedial Techniques in Basic School Subjects.

6 . Ministry of Education Pamphlet No. 5 : Special Educational Treatment.

7 . Nunn P. : The Education of Backward children.

8 . Schonell F. : Backwardness in the Basic Subjects.

9 . Schonell F. : Diagnosis of Individual Difficulties in Arithmetic.

10. The University of Birmingham Institute of Education : Remedial Education Centre.

11. Traxler. A, E : Techniques of Guidance.

الفصل الثاني

ذنوب الأحداث

مقدمة :

رأينا فى حالتى الضعف العقلى والتأخر الدراسى مثالين للانحراف أو الشذوذ أولهما يتعلق بالتكوين العقلى الطبيعى أو القدرة المعرفية الفطرية ، والثانى يتعلق بالتكوين الثقافى المكتسب أو القدرة المعرفية التعليمية ، وفى كلتى الحالتين كان الشذوذ أمرا خاصا بالفرد ، بحيث لا يتحتم أن يترتب عليه ضرر إيجابى بالغير .

أما مشكلة ذنوب الأحداث فنوع آخر من الانحراف الذى يتعدى أثره إلى إيقاع الضرر بالغير مما يقع تحت طائلة العقاب ، ولهذا يعتبر شذوذا فى السلوك الاجتماعى .

وإذا كانت انحرافات الأحداث من النوع الذى يعتبر خارقا للقانون بحيث تستحق العقوبة لو حدثت من الكبار فإنها تسمى «جرائم الأحداث» ولكن الكلام هنا سيتناول « ذنوب الأحداث » حتى يكون البحث شاملا لتلك التصرفات التى يفلت مرتكبوها من الإحالة إلى المحاكم ، والتى قد تضارع تلك الجرائم فى خطورتها وأهميتها . كما أن استبدال لفظة «جرائم» بالانحرافات أو الذنوب فى حالة الأطفال يتضمن استبدال النظرة القاسية الانتقامية إليهم بالنظرة الدراسية العلاجية التى تدعو إلى اتجاه المجتمع فى معاملة الأحداث نحو الإصلاح والرعاية والتهذيب بدل السجن والعقاب والتعذيب ، فبدل أن

نعتبر الأطفال من مرتكبي هذه الذنوب مجرمين آثمين يصح أن نعتبرهم مرضى أو منحرفين يحتاجون إلى العلاج والتقويم لتصح نفوسهم فيصبحوا مواطنين نافعين .

ويمكن أن نتناول مشكلة الأحداث من عدة زوايا . فهي تعد مشكلة تربوية لأنها لا تختلف كثيرا عن مشكلات الأطفال اليومية فى أساسها والدوافع إلى ارتكابها سوى أنها تتخذ وضعا قانونيا خاصا لارتباطها بالعدوان على الغير ، وهى مشكلة قانونية من حيث التشريعات التى توضع بشأنها من ناحية محاكمة الأحداث وعقوباتهم . . الخ ، كما أنها تعد من المشكلات البارزة فى علم الاجتماع من حيث عواملها وآثارها الاجتماعية ، على أن المشكلة من حيث دوافعها وأسبابها تقع فى دائرة علم النفس الذى يبحث القوى الديناميكية الفعالة فى شخصية الحدث والتى تسوقه إلى ارتكاب هذه الذنوب ، كما يرسم خطوط العلاج النفسى والتربوى التى ترمى إلى وقاية المجتمع وحماية الحدث من الانسياق إلى طريق الجريمة الذى يؤدى به إلى السجن والهوان فى المستقبل .

ومن المهم أن نؤكد ضرورة ارتباط الدراسات التى تقوم بها هذه العلوم وغيرها مما يمس المشكلة من قريب أو بعيد ، إذ أن سلوك الإنسان فى أى صورة من صوره السوية أو الشاذة يعتبر محصلة لعدة عوامل أو قوى لا يمكن الفصل بينها ، وإن كنا نسمى بعضها عوامل نفسية و بعضها عوامل اجتماعية و بعضها عوامل جسمية . . وهكذا . . فالسلوك مظهر للشخصية التى تعتبر وحدة متكاملة لا تقبل التجزئة .

فكرة عامة عن تشريعات الأحداث فى مصر :

قد يكون من المفيد أن نستعرض نظام معاملة الأحداث فى مصر باختصار فإن هذا يساعد على إبراز أهمية المشكلة قبل أن نتعرض للجانب النفسى منها .

وضع أول تشريع مصرى للأحداث عام ١٨٨٢ ثم عدل تعديلات كثيرة أهمها تعديل عام ١٩٣٧ ؛ ويعتبر قانون الأحداث الطفل غير مسئول عن تصرفاته حتى سن السابعة . أما إذا ارتكب جناية أو جنحة وهو فى سن ٧ — ١٢ فلا يحكم عليه بعقوبة سوى تسليمه إلى والديه أو أهله ، أو إرساله لإصلاحية أو ملجأ أو مؤسسة حكومية أخرى . أما إذا ارتكب الحدث بين سن ١٢ و ١٥ سنة جناية عقوبتها الأشغال الشاقة أو السجن فإنها تبدل بالحبس الذى لا يزيد عن ثلث المدة الأصلية للكبير ، وإذا ارتكب الحدث جناية عقوبتها الإعدام أو الأشغال الشاقة المؤبدة فإن العقوبة تبدل بالحبس لمدة لا تزيد عن عشر سنوات . ويجوز للقاضى ألا يحكم عليه بالحبس بل بعقوبة تأديبية بتسليمه لأهله أو إرساله إلى إصلاحية . .

ولم تكن القوانين حتى عام ١٩٠٨ تشمل الأحداث المشردين أو المهملين أو الذين لا عائل لهم ، ما داموا لم يرتكبوا جريمة يعاقب عليها قانون العقوبات . ولكن فى ذلك العام وضع قانون خاص بالمشردين الأحداث وعدل بقانون عام ١٩٤٩ ، وفيه يعتبر الحدث ، ذكرا كان أو أنثى ممن لم يبلغ ١٨ سنة ، متشرداً إذا وجد متسولا أو مارقا من سلطة أبويه أو لم يكن له محل يأويه بحيث يبيت فى الطرقات . . الخ ، ولذا يجوز للنيابة العامة بحث حالته وتسليمه لوالديه ، أو وضعه فى مؤسسة تحت إشراف وزارة الشئون الاجتماعية ، على أن يخلى سبيل الحدث حتما إذا بلغ عمره ٢١ سنة كاملة .

وفى كل من القاهرة والإسكندرية توجد محكمة خاصة للفصل فى قضايا الأحداث ، وملحق بكل منها مكتب للخدمة الاجتماعية لمحاكمة الأحداث ، مهمته التعاون مع المحكمة فى بحث حالات الأحداث المحولين للمحاكمة من النواحى الاجتماعية والنفسية والصحية ، على أن يرفع تقريرات بنتائج بحثه مشفوعة

باقتراحات استشارية للقاضي أن يأخذ بها أو يرفضها ، وهذه المكاتب تعتبر في الحقيقة نوعا من العيادات النفسية بالمعنى الصحيح .

هذا وتوجد بمصر عدة إصلاحيات للأحداث وهي : إصلاحية الجيزة المخصصة للأحداث المشردين من سن ٨ سنوات فأكثر بحيث لا يبقى بها الحدث إذا وصل إلى سن ١٨ سنة ؛ ويشرف عليها من حيث المراقبة ضباط عسكريون ، ومن حيث التعليم مدرسون من التعليم الأولى و بعض الموظفين الفنيين في تعليم الصناعات . أما إصلاحية البنات فتعتبر مدرسة داخلية للتدبير المنزلي وتضم البنات ممن يحكم عليهن حسب قانون التشرد أو قانون العقوبات ، بين سن ٧ و ١٢ سنة ولا تبقى بها البنت إذا وصلت إلى سن ١٨ سنة .

وهناك أيضا إصلاحية المرج المخصصة للمحكوم عليهم بقانون العقوبات ، أي الأحداث المجرمين ، حيث يتعلمون بها الزراعة والصناعات الزراعية بجانب التعليم الأولى . وأخيرا نجد إصلاحية الأحداث بالقناطر الخيرية ، وهي تعتبر مدرسة صناعية للغزل والنسج مع التعليم الأولى أيضا ، ويختار لها الأحداث المتشردون ممن ألحقوا بإصلاحية الجيزة وقضوا بها فترة لا تقل عن سنتين مع توافر شروط خاصة من حيث ملاءمتهم واستعداداتهم لهذا النوع من العمل الصناعي .

أسباب ذنوب الأحداث

يهتم القانون بالنظر إلى جرائم الأحداث من حيث نتائجها ، ومبلغ الضرر الذي ينجم عنها ، ولهذا تهدف الدراسة القانونية لقضايا الأحداث إلى محاولة إثبات التهمة أو نفيها بالبحث عن الشهود والأدلة والقرائن . . . الخ ؛ إذ أن الغرض الأساسي هنا هو حماية المجتمع وحفظ الأمن . . . ولهذا يقسم القانون

هذه الذنوب إلى مخالفات وبنح وجنايات . . . وهكذا ، ويقرر لنا العقاب على حسب القدر الكمي للضرر وما تنص عليه مواد القانون .

ولكن الجريمة على هذه الصورة ليست سوى ظاهرة خارجية ، إذ تكمن وراءها أسباب أكثر أهمية لعمقها وتأصل جذورها أحيانا فى شخصية المذنب ، ولهذا فالعقاب ليس إلا علاجا سطحيا للظاهرة ، وان يزيد المشكلة إلا تعقيدا ، لأنه يضيف عاملا جديدا فى دفع المذنب لمعاودة الإجرام فى أغلب الأحيان .

وكثيرا ما تعرض للمحاكم حالات من المجرمين العائدين ، الذين تكون حياتهم عبارة عن سلسلة متتابعة من الذنوب والجرائم التى ترجع بوادرها إلى أيام الطفولة والصبا ، ولم تثمر فيها الأحكام والعقوبات السابقة بل زادتها تعقيدا . وفى مثل هذه الحالات يصح أن نتساءل هل من الممكن أن يساعدنا علم النفس على دراستها فى باكورة ظهورها ، وعندما يكون الفرد لا يزال فى مرحلة المرونة والقابلية للتشكل والتغير ، حتى نحول بينه وبين هذه النهاية التعسة المؤسفة ؟

يؤكد علم النفس أهمية تركيز البحث فى الحدث ذاته وفى طبيعة ذنبه والظروف التى ساقته إلى ارتكاب هذا الذنب أو ذاك . ولهذا يركز الاختصاصى النفسى جهوده فى بحث البواعث والأسباب مهما كانت الصورة الشكلية أو الكمية التى يظهر بها الذنب .

وقد ثبت أن ذنوب الأحداث ترجع إلى أكثر من سبب واحد ، وأن هناك ما يزيد على ٦٠ عاملا يمكن تفنيدها كصفات مميزة لجماعة المجرمين الأحداث ، وأن من الممكن أن يشترك أكثر من ١٢ سببا فى دفع الحدث إلى ارتكاب ذنب واحد ، وأن الذى يؤدى بالحدث إلى ارتكاب ذنب معين ليس ذلك السبب المباشر الذى قد يكون واضحا فيعاقب الحدث من أجله ،

وإنما هو فى الأغلب تراكم مجموعة من الأسباب والعوامل واحدا بعد الآخر لدرجة تجعل الحدث غير قادر على احتمال الموقف الذى ينجم عن إثقال نفسه بهذه الأسباب المتراكمة فيقع فى ارتكاب الذنب . . . ويجب إذن أن يكون العلاج قائما على بحث الأسباب كلها لا على مجرد النظر إلى السبب المباشر .

ويجب أن نشير هنا إلى أن الذنب الواحد قد يرجع إلى أسباب مختلفة من شخص إلى آخر، وتختلف الأسباب فى الشخص نفسه من مرة لأخرى . فقد يكون الدافع للسرقة مثلا مرة الجوع ، ومرة حب التملك ، ومرة الجهل وعدم القدرة على التمييز بين حقوق الشخص وحقوق غيره ، ومرة أخرى مرض نفسى . . . وهكذا .

وإزاء تعقد الأسباب وتنوعها وتداخلها ينبغى فى دراسة ذنوب الأحداث الالتجاء إلى طريقة البحث الفردى Case Study لمعرفة الدوافع الحقيقية والظروف التى تجمعت فأدت بالحدث إلى ارتكاب الذنب ، وذلك فى ضوء تحليل الموقف الكلى وتفاعل القوى المكانية والزمانية سواء منها ما يتعلق بالفرد نفسه وما يتعلق بعوامل البيئة . وهذا لا يتم على الصورة المجدية إلا فى العيادات النفسية الملحقة بمحاكم الأحداث حيث يتوافر وجود المختصين فى جميع النواحى .

وسنحاول فيما يلى تصنيف الأسباب المختلفة لذنوب الأحداث فإن هذا يساعد عند البحث فى دراسة الحالات الفردية بالعيادات . وسنتبع فى هذا التصنيف نفس الخطة التى يمكن أن نلمسها فى دراسة عوامل التأخر الدراسى، والتى تصلح لدراسة أى نوع من أنواع الشذوذ النفسى ، وهى خطة مبنية على تحليل الشخصية إلى مركباتها الرئيسية[1] .

---

(١) انظر كتاب تحليل الشخصية للمؤلف .

عوامل البيئة

كان المعتقد قديماً أن الإجرام صفة طبيعية تولد مع بعض الأشخاص ، ولكن الدراسات التحليلية لعوامل الإجرام قد أثبتت أن معظم هذه العوامل ترجع إلى فساد البيئة ، وأن الإجرام ظاهرة اجتماعية بمعنى أن الخارجين على القانون هم في أغلب الأحيان ضحايا فساد التربية والبيئة والظروف ، ولا ذنب لهم في الحقيقة ، بل الذنب ذنب أهلهم وذنب المجتمع الذى هيأ لهم البيئة السيئة التى نشأوا فيها.

ويؤكد علماء الاجتماع والتربية على الخصوص أهمية عوامل البيئة المنزلية والمدرسية والاجتماعية العامة ، سواء منها ما يتعلق بالفقر المادى وما يترتب عليه من تقتير أو حرمان ، وما يتعلق بأساليب التربية وما يكون فيها من أخطاء وعيوب ، كتناقض معاملة الوالدين أو سوء أخلاقهما ، وأهم من كل ذلك عامل التفكك العائلى وانحلال روابط الأسرة الذى يعتبر مسئولا عن أكثر من نصف حالات ذنوب الأحداث وتشردهم .

وقد دلت الدراسات الإحصائية التى قام بها مكتب الخدمة الاجتماعية للأحداث بالقاهرة على أن ٧٦٪ من الحالات التى قام ببحثها ترجع أسباب الانحراف فيها إلى أثر البيئة المنزلية بعواملها المختلفة ، و ١٤٪ إلى أثر البيئة الخارجية كصحبة قرناء السوء أو تأثير بعض روايات السينما أو وقوع الحدث تحت سلطة (البلطجية) ، وأن ٨٪ فقط من الحالات ترجع إلى عوامل ذاتية فى شخصية الحدث كالعاهات الجسمية والعقلية والنفسية ، وترجع باقى الحالات إلى عوامل مختلفة حار المكتب فى تغليب انتسابها إلى أحد هذه الأقسام .

وتدل المعاينات الإحصائية الواسعة على أن الأحياء الفقيرة التى تنتشر

فيها العقائد الفاسدة والجهل والمرض والانحلال الخلقى تكون مصدرا لعدد من الأطفال المنحرفين يفوق بكثير العدد الذى ينحرف من أطفال الأحياء الراقية.

ويمكن تقسيم ذنوب الأحداث بحسب عمق تأثير عوامل البيئة فيها إلى ما يأتى : —

أولا : الذنوب البريئة Benign Delinquencies :

وهى التى تعزى إلى عدم فهم وتقدير خصائص الطفولة وعدم تهيئة الجو الملائم للطفل كى يعبر عن دوافعه الطبيعية بطريقة مناسبة ، فكثيرا ما يقع الطفل فى أخطاء وذنوب أثناء التعبير الطبيعى عن دوافعه النفسية دون أن يقصد إلى إحداث الضرر بالغير ، ولذا لا يصح لوم الطفل عليها لأنها تتمشى مع قواعد الصحة النفسية . ومن أمثلة ذلك أكاذيب الأطفال التى تتصل بخصوبة خيالهم فى بعض مراحل النمو ، وكذلك ما ينتج عن ميل الطفل الطبيعى للمخاطرة وحب التسلق الذى يدفعه أحيانا إلى تجريب قدرته على تسلق شجرة أو سور حديقة فيمسك به صاحبها ويتهمه بالسطو أو الشروع فى السرقة ، ومن أمثلة ذلك أيضا ميل الطفل إلى اللعب والتعبير عن طاقته الحيوية بلعب الكرة ، ولكنها تخطىء فتصيب زجاج نافذة الجيران . . وغير ذلك مما يمكن تلافيه بتهيئة الملاعب والحدائق وأخذ الأطفال فى رحلات تشبع ميلهم للمخاطرة وغيرها .

وينبغى أن نقف من مثل هذه الذنوب موقفا لينا ، وألا نعامل الحدث الذى يرتكبها بالقسوة أو نتهمه بالإجرام ، بل يصح التغاضى عنها لأن وصم الطفل بالسرقة أو الإجرام فى هذه الحالات قد يخلق منه مجرما بالفعل فيما بعد .

ثانيا : الذنوب البسيطة Simple Delinquencies :

وترجع بساطتها إلى عدم تعمق جذورها فى نفسية الحدث ، حيث تكون عوامل البيئة ذات أثر مباشر فى إحداثها دون أن يكون عند الطفل نفسه استعداد للسلوك الإجرامى ، كالطفل الذى يدفعه أهله دفعا إلى السلوك المنحرف ، أو الطفل الذى يقع فى حبائل القواد من كبار المجرمين فيضطرونه إلى تنفيذ جرائمهم ، أو الفتاة التى تجبرها الظروف إلى مسلك الدعارة قهراً ، أو الطفل الذى ينحرف بسبب الصحبة السيئة . . وغير ذلك من الحالات التى يكون الحدث فيها غير متأثر بدوافع ذاتية متأصلة فى نفسه بحيث يندفع بإرادته لارتكاب الذنوب .

وفى هذه الحالات يكون من اليسير علاج الحدث وتطهيره من الذنوب بمجرد إبعاده عن هذه المؤثرات .

ثالثا : الذنوب التى يردبها الطفل على مؤثرات البيئة Reaction Delinquencies :

وفيها تكون آثار عوامل البيئة أكثر تعمقا فى نفسية الحدث ، ويكون سلوكه الإجرامى بمثابة الرد أو الاحتجاج على هذه المؤثرات بطريقة شعورية أو غير شعورية . ومن أمثلة ذلك الذنوب التى ترجع إلى ما يلقاه الطفل فى صغره من قسوة فى المعاملة تجعله يشب ثائرا ساخطا على الحياة ميالا للانتقام من البيئة ، كحالات الحرمان من العطف التى تنتج من التفكك والاضطراب العائلى ، ومن ذلك أيضا الذنوب التى تترتب على الفشل فى الحياة المدرسية أو عدم الانسجام فى الحياة العائلية وما قد يوجد فيها من مسببات الغيرة الشديدة والعناد وحب الانتقام . وترجع كثير من حالات الجرائم الجنسية والسرقة إلى هـذا النوع من العوامل .

ولعلاج هذه الحالات ينبغى البحث فى القوى الفعالة فى العلاقات العائلية وغيرها من عوامل تربية الطفل فى نشأته الأولى ، ومعرفة مركز الطفل فى الأسرة ونوع المعاملة التى شب عليها الطفل من تدليل أو حرمان أو غيرهما . وقد دلت مثل هذه الدراسات على أن الطفل الأكبر هو أكثر الأخوة تعرضا للانحراف وذلك لتعرضه أكثر من إخوته لعيوب التربية كالتدليل وعدم الاعتماد على النفس وعدم المثابرة وغير ذلك .

رابعا : الذنوب التى ترجع إلى المرض النفسى Psychoneurotic Delinquencies

وقد تكون عوامل البيئة قوية التأثير لدرجة تحدث معها حالات المرض النفسى التى يندفع الحدث بسببها إلى الإجرام من غير أن يدرك الباعث الحقيقى لسلوكه ، وهذه الذنوب يمكن تفسيرها على أساس التعبير عن المخاوف أو الرغبات النفسية المكبوتة فى صورة تصرف شاذ من الناحية الاجتماعية ، ومن أمثلتها بعض حالات الجرائم التى يكون طابعها الشذوذ الجنسى ، وحالات السرقة القهرية التى تسمى Kleptomania التى ترمز إلى انتزاع الحب والحصول على العطف فى صورة الشىء المسروق ، وجرائم إشعال الحريق التى ترمز أحيانا إلى الثورة ضد الكبت الجنسى ، وغير ذلك من الجرائم التى تعبر بطريقة رمزية عن العقد النفسية بطريقة لاشعورية . . والتى تحتاج فى علاجها إلى التحليل النفسى وتعديل البيئة بما يؤدى إلى إعادة انسجام عناصر الشخصية الشعورية واللاشعورية .

وتتميز هذه الذنوب بتورط الشخص فى ارتكابها بسبب عوامل نفسية مكبوتة لا يشعر بها وقت ارتكاب الذنب ، ولكنه ينتحل الأعذار بطريقة يبرر بها موقفه Rationalisation فيذكر أسبابا شعورية لا تكون الباعث الحقيقى للانحراف .

ويؤكد علماء التحليل النفسى أهمية هذه الدوافع وينسبونها إلى اضطراب الجهاز النفسى وما يعترى مكوناته من ضروب الصراع Conflict ، وطغيان القوى اللاشعورية على الذات الشعورية ، وما يتبع ذلك من وطأة الشعور بالإثم Sense of Guilt والميول العدوانية التى تتخذ صورة الرغبة فى التعذيب Sadism كما فى بعض جرائم القتل .

والمهم أن هذه الآثار النفسية اللاشعورية يرجعها علماء التحليل النفسى إلى التربية وعوامل البيئة التى نشأ فيها الحدث منذ الصغر ، وبالأخص علاقة الطفل بأبويه وما يتبعها من حالات الصراع الأوديبى Oedipus Conflict ، واضطراب نمو الذات العليا Super-Ego وتفككك روابطها بسبب ما قد يتعرض له الطفل من أساليب العقاب وتضارب المعاملة وعدم انسجام العلاقات العائلية والاجتماعية .

العوامل العضوية Organic

كان لمبروزو Lombroso عالم الفسيولوجيا الإيطالى أول من وجه النظر إلى ضرورة دراسة المجرم بعد أن كان الاهتمام متجها لدراسة الجريمة ، ولكنه كان يعتقد أن المجرم شخص يمكن تمييزه بصفات جسمية خاصة تبدو فى طابع تكوينه البدائى الذى يمكن معرفته من قسمات الوجه أو مظاهر الشذوذ والعيوب العضوية التى يولد بها الشخص كالصرع والجنون . ولكن من الثابت كما سبق أن أشرنا أن الإجرام ينتج من تضافر جملة عوامل أغلبها من مؤثرات البيئة وليس من الضرورى أن تكون له أية علامات أو مصاحبات جسمية ؛ غير أن هناك بعض الحالات التى نجد فيها أثر العوامل التكوينية Constitutional المتصلة بالنواحى العضوية واضحا بحيث تعتبر دوافع رئيسية

للانحراف وتكون عوامل البيئة ثانوية بالنسبة لها . ومن أمثلة ذلك ما يأتى : —

أولا : الذنوب التى ترجع إلى عاهات الحس والحركة :

فكثيرا ما تكون العاهة سببا لشقاء صاحبها وشعوره بعدم التكافؤ الاجتماعى والإحساس بالظلم وعدم القدرة على المنافسة والشعور بالنقص . . . مما يدفع به إلى السلوك الإجرامى تعويضا عن شعوره بالنقص أو انتقاما من البيئة ، كما أن بعض ذوى العاهات يضطرون أحيانا إلى استجلاب الرحمة والشفقة عليهم عند ما تشتد حاجتهم ويعوزهم الكسب فينحرفون إلى الاستجداء والتسول والتشرد .

ثانيا : الذنوب التى ترجع لسوء الحالة الصحية :

فكثيرا ما تكون الأمراض الجسمية ونقص التغذية سببا مباشرا للانحراف ، ومن أمثلة ذلك حالة الحدث المتشرد الذى كان لا يكاد يستطيع أن يستقر فى أى عمل يلتحق به ، وتبين من الكشف الطبى عليه أنه مصاب بالقراع ، وأن خجله من علته هذه ومن تعيير الناس له بها ، كان السبب فى تشرده وجنوحه فلما عولج وشفى انتظم فى عمله . وحالة أخرى لخادمة صغيرة كانت تسرق الأطعمة من بيوت الجيران ، وظهر من الكشف الطبى عليها أنها مصابة بديدان الأسكارس وهى ديدان تعيش فى الأمعاء وتشارك صاحبها طعامه ولا تترك له منه إلا النذر اليسير ، فالطفلة لم تكن فى هذه الحالة مجرمة تسرق ولكنها كانت جائعة تريد الأكل ، ولما عولجت من علتها صلحت حالها .

ثالثا : الذنوب التى ترجع إلى اضطرابات الغدد الصماء Endocrine Glands :

ومن أبرز حالاتها اضطراب إفرازات الغدد التناسلية الذى يتسبب عنه كثير من ضروب الانحرافات الجنسية ، والمثل على ذلك حدوث البلوغ مبكرا وقبل الأوان ، الأمر الذى يدفع بالحدث إلى إشباع الميل الجنسى بطرق غير مشروعة ، حيث لا يكون نموه العقلى قد وصل إلى الدرجة التى تمكنه من السيطرة على تصرفاته الغريزية والتوفيق بينها وبين التقاليد والقوانين الاجتماعية .

وكثيرا ما يؤدى عدم انتظام إفرازات الغدد الأخرى كالغدة فوق الكلية والغدة الدرقية ، إلى سرعة الغضب وحدة الطبع ، مما يعرض الشخص للانحرافات العدوانية . . .

رابعا : الذنوب التى ترجع لأمراض عقلية عضوية Oragnic Psychoses :

ومن أمثلتها الواضحة حالات الذنوب التى يرتكبها أصحابها تحت تأثير المواد المخدرة والمشروبات الكحولية التى تجعل الشخص فى حالة لا يستطيع معها التحكم فى تصرفاته وأعماله . وهناك حالات من الجنون يكون سببها إصابات مباشرة فى المخ تجعل الشخص فى حالة غير عادية ، وهناك أيضا حالات الشلل الجنونى العام الذى ترجع أسبابه إلى مرض الزهرى . . وفى هذه الحالات وأمثالها يقوم الشخص بارتكاب جرائم عدوانية مختلفة تجعل من الضرورى عزله عن المجتمع لعلاجه فى المستشفيات الخاصة . هذا ويمكن أن نضيف هنا حالات الإصابة بنوبات الصرع Epileptic Fits حيث يكون الشخص فى أثناء هذه النوبات فى حالة يفقد فيها شعوره وذاكرته بحيث يرتكب بعض الذنوب أحيانا من غير وعى أو إدراك .

ويلاحظ أن بعض حالات الصرع لا تكون واضحة بحيث تختلط مع حالات السلوك السيكوباثى وغيرها ، ولكن من الممكن تمييزها الآن بدقة بجهاز الموجات الكهربائية المخ الذى يسمى Electroencephalogram

عوامل القدرات العقلية المعرفية

إن نقص القدرات العقلية المعرفية الفطرية منها أو المكتسبة يجعل الشخص أقل إدراكا وتمييزا للسلوك السوى والشاذ ، إذ يؤدى قصوره العقلى أو جهله إلى مخالفة القانون من غير تبصر وبدون أن يشعر بالندم على ما يقترفه من الذنوب ، ويمكن تلخيص أنواع الذنوب التى ترجع إلى هذا النوع من العوامل إلى ما يأتى : —

أولا : الذنوب التى ترجع إلى الغباء والضعف العقلى :

يعتقد الباحثون فى علاقة النقص العقلى بالإجرام أمثال جودارد Goddard وهيلى Healy أن الضعف العقلى هو أكبر عامل وحيد يسبب الانحراف ، بحيث لا يحتاج لعوامل أخرى بجانبه ، لأن الضعف العقلى فى ذاته يعتبر مصدرا كافيا للاستعداد للسلوك الإجرامى . فهو إذن أقوى العوامل التكوينية البيولوجية التى تسبب نسبة كبيرة من ذنوب الأحداث .

وقد كانت البحوث الأولى تدل على أن نسبة ضعاف العقول بين المجرمين من نزلاء السجون والإصلاحيات تصل إلى أكثر من ٦٠٪ ولكن هذا كان مبالغا فيه نتيجة أخطاء قياسية وإحصائية ، خصوصا وأن من المعروف أن هناك من المجرمين والأحداث المذنبين كثيرين خارج الإصلاحيات والسجون ممن يساعدهم ذكاؤهم العالى على الإفلات من أيدى العدالة .

وقد دلت بحوث بيرت Burt فى انجلترا وهيلى Healy فى أمريكا على أن بين نزلاء الإصلاحيات للأحداث المذنبين ما يقرب من ٨٪ من ضعاف العقول ، وأكثر من ٢٨٪ من الأغبياء ، ويقابل ذلك ١٪ فقط و ١٠٪ على التوالى ، بين أفراد المجتمع العام .

وقد قام المؤلف بقياس ذكاء عدد يقرب من ٣٠٠ طفل من نزلاء إصلاحية الأحداث بالمرج ، فوجد أن ٧٥٪ منهم تقريبا نسبة ذكائهم أقل من ١٠٠ وأن نسبة ضعاف العقول بينهم تقرب من ٢٠٪ ؛ كما قام مكتب الخدمة الاجتماعية للأحداث بالقاهرة بقياس ذكاء ٤١٨ طفلا من الأحداث المحولين إليه ، فكان منهم ٢١٪ من ضعاف العقول و ٢٥٪ من الأغبياء ، بينما كان منهم ٥ر٥٪ فقط من طبقة ذكاء فوق المتوسط و ٥ر١٪ من طبقة ذكى جدا .

وتتميز ذنوب ضعاف العقول والأغبياء بعدم حبك خطتها وسهولة ضبطها والاستدلال عليها كحالات السكر والإدمان ، والسرقة البسيطة ، والجرائم الجنسية كالدعارة ، والجرائم الوحشية والهمجية كالقتل بطريقة ظاهرة و إشعال الحريق . . وغير ذلك .

كما تكثر جرائمهم التى يسخرهم فيها الأذكياء من رؤساء العصابات لترويج تجارة المخدرات واستخدام الخادمات فى كشف أسرار مواطن السرقات فى البيوت وجرائم الخطف .. و بالطبع لا يكسب ضعاف العقول من هذه الغنائم سوى دريهمات قليلة . أما النصيب الأكبر فللعصابات ورؤسائها .

ثانيا : ذنوب الأذكياء :

غير أن الإجرام ليس مرتبطا دائما بالغباء أو الضعف العقلى ، فأقسى أنواع الجرائم يقوم بها فى الغالب أشخاص متفوقون فى الذكاء ، و إن كانوا يستعينون

فى تنفيذها أحيانا بمن هم أقل ذكاء ، وتتميز جرائم الأذكياء باتقان رسم خطتها وخطورتها . ومن أمثلتها الجرائم الانتقامية كالقتل والإتلاف وجرائم التزوير والنصب والاحتيال وتدبير المؤامرات . .

على أن التفوق فى الذكاء ليس فى ذاته سببا للانحراف ، وإنما ينحرف الشخص الذكى عن السلوك السوى إذا وجد نفسه فى بيئة لا تقدر ذكاءه ولا تهيء له الفرصة لاستغلاله بطريقة ملائمة ، كحالة الصبى الذى ضبط متلبسا بسرقة عدد كبير من طوابع البريد ، وتبين أن والديه كانا غير قادرين على تربيته لأنهما كانا أقل منه فى الذكاء بكثير ، حيث كان يجادلهما ويخالفهما فى الرأى وينتصر عليهما فى المناقشات ، ولعجز والديه عن متابعة تعليمه اضطر الصبى للالتحاق بعمل لا يتناسب مع ذكائه مع أحد رجال الأعمال ، وظل أمينا فى هذا العمل مدة ، ثم طالب بتحسين أجره فلم يجب إلى طلبه وكان جزاؤه الفصل ، فبدأ ينحرف إلى السرقة والاتجار فى مسروقاته إلى أن ضبط متلبسا بجريمته . ولكن من حسن الحظ أنه وجد من يوجهه إلى عمل آخر يستطيع مع قيامه به أن يتابع الدراسة المسائية فى أحد المعاهد إلى أن أصبح مؤهلا للالتحاق بوظيفة تتناسب مع ذكائه فأصبح ناجحا فى حياته .

ثالثا : الذنوب التى ترجع إلى الجهل ونقص التعليم :

إن الجهل ونقص التعليم الثقافى أو المهنى بالنسبة للتشرد والإجرام كالجراثيم الفتاكة بالنسبة للأمراض ، فكلما زادت وكثرت عم الوباء . ولهذا تكثر الذنوب والانحرافات فى الجهات التى ينتشر فيها الجهل وتتفشى فيها المعتقدات الخرافية ومظاهر السلوك البدائى ، فأفراد بعض القبائل العشائرية يعتبرون الغزو والسلب مظهرا من مظاهر الشجاعة ، والأخذ بالثأر عنوان الكرامة

والعزة ، ولا يعتبرون الطفل قيمة عندهم إلا عندما يصبح قادرا على الغدر وحمل السلاح والسرقة بحيث يعد ممن يعتمد عليهم فى الذود عن القبيلة وتحصينها .

وكثيرا ما يؤدى الفشل المدرسى ونقص التعليم إلى التعويض عن النقص بالانحراف إلى الاشتراك فى الثورات وأعمال التخريب والاندماج فى العصابات الإجرامية .

كما أن البطالة التى تنتج من عدم توجيه الأفراد إلى المهن المناسبة لاستعداداتهم الخاصة ، أو عدم تعليمهم بما يكفى لإتقان عمل معين بحيث يشعرون أثناء القيام به بالرضى النفسى ، قد تكون من أهم العوامل فى دفع الأفراد إلى الانحراف وارتكاب الذنوب . ولهذا كان التعليم بأنواعه من أهم الأسلحة ضد انتشار الإجرام والتشرد .

العوامل الانفعالية والمزاجية

يختلف الأفراد فيما بينهم من حيث الطاقة الانفعالية والطابع المزاجى ، ومن الممكن أن نلمس هذا الاختلاف فى طوائف الأحداث المذنبين حيث يمكن أن نتبين حالة الشخص المزاجية والانفعالية من نوع الذنوب التى يرتكبها إذ أن الانحراف ما هو إلا مظهر من مظاهر السلوك الذى يعبر عن أسلوب الشخص وطابعه المزاجى .

الذنوب التى ترجع لاضطراب الطاقة الانفعالية العامة :

وهذه يتميز أصحابها بالشذوذ من حيث قوة الطاقة الانفعالية وعنفها بحيث يصعب كبح جماحها ؛ أو ضعفها لدرجة الخمول والبرود الانفعالى والبلادة المزاجية Temperamental Apathy ، أو من حيث عدم الاستقرار أو الثبات الانفعالى Emotional Instability . . . الخ .

وقد قام هيلى Healy بدراسة إحصائية لمجموعتين من الأطفال كل منهما مكونة من ١٠٥ أطفال ، إحداهما من الأحداث المنحرفين ، والثانية من العاديين المقارنة Control Group ، فوجد أن أفراد المجموعة الأولى تكثر بينهم صفات اضطراب الطاقة المزاجية مثل النشاط الزائد عن الحد Hyperactivity ، والميل للتجمع والاختلاط ، والميل إلى إظهار القوة والسيطرة واستعمال العنف ، كما تكثر بينهم مظاهر الشعور بالنقص . . . بينما تقل بينهم صفات الهدوء والاستقرار ، وحب العزلة والمسالمة ، أى إن معظم حالات الأطفال المنحرفين ممن تنطبق عليهم صفات الظاهريين Extroverts المعروفة فى تقسيم يونج Jung بينما تقل بينهم حالات الباطنيين أو المنطوين Introverts .

هذا ويمكن تقسيم الأحداث المنحرفين من حيث الصفات المزاجية إلى طائفتين رئيسيتين : الأولى تضم مدبرى الجرائم وأفراد عصابات السطو والسرقة والاعتداء بالقتل وغيره ، وهؤلاء تغلب عندهم النزعة إلى السيطرة واستعمال العنف والقوة . والثانية تضم المتسكعين والمتشردين والمتسولين وضحايا الاعتداء الجنسى . . وغيرهم ممن تغلب عليهم دوافع الخنوع والاستكانة والاستسلام .

الذنوب ودوافعها الغريزية الخاصة :

وليس أدل على أهمية النواحى الانفعالية فى الانحراف من أن من الممكن إرجاع جميع ذنوب الأحداث إلى أساس مبنى على الدوافع الانفعالية الغريزية الفطرية التى تعتبر منابع الطاقة النفسية ، مهما تعددت المظاهر والصور التى تعبر بها عن نفسها . ولهذا نجد أن نسبة حدوث الأنواع المختلفة للذنوب بين البنين والبنات تتمشى مع الفروق الجنسية فى النزعات والدوافع الغريزية الأصلية .

فمثلا يتعرض الإناث أكثر من الذكور للانحرافات الجنسية بنسبة الضعف تقريبا ، وطبيعى أن تكون معظم ذنوب الأولاد فى هذه الناحية من النوع العدوانى ، بينما تكون ذنوب الإناث من النوع الذى يتميز بالاستسلام كالسعارة والبغاء .

أما الذنوب المبنية على الغضب والعدوان كالضرب والقتل والقسوة على الحيوان أو الأطفال ، والتعبير عن الغضب بإتلاف ممتلكات الغير بالتدمير والتخريب وإشعال النار . . وغيرها ، فتكثر بين البنين أكثر من البنات .

وتغلب فى البنين أيضا الذنوب المبنية على حب التملك ، وأهمها حالات السرقة التى تكون أكثر نسبة فى ذنوب الأحداث ، وما يتبعها من الالتجاء إلى اقتحام المحلات العامة وتسلق الأسوار ، والسطو على المنازل والخطف والسلب والنهب . . . الخ ، وتعتبر الشحاذة والتسول من الانحرافات التى يمكن إرجاعها إلى الدافع الغريزى لحب التملك ، وإن كانت ترجع كغيرها من الذنوب إلى أنواع مختلفة من العوامل .

وأما الذنوب المتعلقة بالخوف والهرب كالمروق من السلطة الأبوية وحالات التشرد والنوم بعيدا عن المنزل ، والهروب من المدرسة ، وغير ذلك مما يرجع لكراهية الحياة فى البيئة الغير الملائمة ، فتكثر بين البنين أيضا .

ويمكن أن تضم لهذه الطائفة من الذنوب أيضا حالات محاولة الانتحار والتخلص من الحياة والهرب منها ، وهذه تكثر فى البنات ، وإن كانت لها أيضا دوافع أخرى مرضية ونفسية فى معظم الحالات .

وهناك نوع آخر من الذنوب التى تكثر بين البنات عن البنين وهى ذنوب الكذب وتكتم الأسرار ، وما يتبع ذلك من ضروب الغش والخداع وغيرها ، وهذه يمكن أن ترجع لأكثر من دافع غريزى واحد ولكن الدافع الأساسى فيها هو الخوف .

ويجب أن يكون مفهوما أن أى ذنب من الذنوب قد يشترك فى الدفع إلى ارتكابه أكثر من عامل انفعالى واحد ، فالسرقة قد يكون الدافع لها إشباع الجوع وحب التملك أو الرغبة فى الانتقام نتيجة الغضب وهكذا .

الذنوب ودوافعها المزاجية المكتسبة :

وأهمها عدم إشباع الميول Interests ، وعدم انسجام الحياة العاطفية ، والصراع النفسى الناتج من اضطرابات الحياة النفسية اللاشعورية ، نتيجة فساد عوامل التربية فى البيئة المحيطة بالطفل ، مما سبق أن فصلناه فى استعراضنا لأثر عوامل البيئة فى ذنوب الأحداث . ويمكن أن تصل هذه العوامل إلى درجة من القوة بحيث تؤدى إلى اضطراب الشخصية وانهيارها ، كما فى الذنوب التى يرتكبها المصابون بالأمراض النفسية كالهستريا ، والأمراض الذهانية كالبارانويا والجنون الدورى .

إصلاح الأحداث المنحرفين

تبين مما سبق أن واجبنا إزاء الأحداث المنحرفين أعمق من مجرد محاكمتهم وإيداعهم الإصلاحيات ، إذ أن المسئولية فى معظم الحالات تمتد إلى الآباء وإلى المجتمع ذاته ، كما اتضح من تحليلنا للأسباب أن المشكلة نفسية قبل كل شىء ، ولا بد أن تعالج فى ضوء الإفادة من تعاليم علم النفس وبحوثه .

ويمكن أن يتناول الإصلاح النواحى الآتية : —

أولا : النواحى الوقائية :

ويقصد بها الوسائل التى تؤدى إلى توفير السعادة والأمن والصحة لأطفالنا ، وشعورهم بالارتياح فى علاقاتهم بآبائهم وأندادهم وكل من يتعاملون معهم . سواء أكان ذلك فى حياتهم المنزلية أم المدرسية أم فى المجتمع العام .

(ا) أما من حيث الحياة المنزلية فتحسين المساكن والدخل المادى ، وتقوية روابط الأسرة ، والعمل على ضمان الحصانة الأخلاقية فى الطفل يجب أن تكون هدف الإصلاح الاجتماعى .

وقد أنشئت مدارس خاصة للآباء والأمهات بكثير من البلدان الراقية ، يتلقون فيها معلومات تمكنهم من أداء مهمتهم التربوية فى محيط الأسرة بنجاح ، وترتب فيها حلقات دورية للبحث فى المشكلات التربوية والعائلية التى يثيرها بعض الآباء والأمهات ، كما أنها مراكز استشارية لحل هذه المشكلات .

(ب) أما من حيث الحياة المدرسية فتعميم التعليم والعمل على علاج التأخر الدراسى ، وإنشاء مدارس خاصة لذوى العاهات وضعاف العقول ، وتنويع التعليم بما يسمح لإيجاد الفرص الملائمة لذوى الاستعدادات والميول المختلفة ؛ من شأنه أن يقلل من حالات انحراف الأحداث .

وينبغى فى حالات الأحداث المنحرفين من تلاميذ المدارس أن يترك أمرهم إلى نظـــار مدارسهم ، وألا يحاكموا أمام المحاكم ، أو يحولوا إلى الإصلاحيات . حيث إن مدارسهم أقدر على فهم القوى الفعالة فى سلوكهم ، وتستطيع بمعاونة المختصين الاجتماعيين فيها أن تدرس حالتهم دراسة وافية ، كما يمكن أن تستعين فى ذلك بنصائح العيادات النفسية الملحقة بإدارات التعليم .

(حـ) أما من الناحية الاجتماعية العامة فإن اهتمام رجال الأمن بواجباتهم واهتمام الحكومة بالإصلاح الاجتماعى ، والإفادة من المختصين فى الخدمة الاجتماعية فى النواحى التى تتطلب معونتهم ، والاهتمام برعاية الطفولة وأنديتهم وأندية الشباب وشغل أوقات فراغهم فى اللعب المنظم والاهتمام بالتوجيه

والتدريب المهنى ، وحماية الأحداث من التعرض للسقوط فى مهاوى الرذيلة والالتجاء لدور التهتك واللهو الرخيص . . . كل هذا من شأنه أن يقلل الفرص لانحرافات الأحداث .

وأهم من كل ذلك العناية بالتربية الدينية ، واحترام شعائر الدين وتقوية جماعاته ، فالدين للأطفال والشباب بمثابة السلطة الضابطة والوازع النفسى الذى يعتبر خير موجه للسلوك .

ثانيا : النواحى التشريعية :

وأهم الخطوط الرئيسية التى يصح الاهتداء بها فى تعديل تشريعات الأحداث ما يأتى : —

(١) أن نقرب بين نظرتنا إلى الحدث المذنب والحدث المتشرد ، لأن كلا منهما سبب ونتيجة للآخر ، والدوافع واحدة فى الحالتين ، ومصير المتشرد إلى الإجرام إن عاجلا وإن آجلا ، وكثيرا ما يرتكب الحدث جرائم عدة ولكنه يتمكن من الإفلات من طائلة القانون ويقبض عليه وهو فى حالة تشرد فيحاكم متشرداً لا مجرما ؛ والمهم أن نراعى أن العبرة ببواعث الانحراف وليست بنتائجه أو الصورة التى يظهر بها .

(٢) ينبغى أن يشمل التشريع مسئولية الوالدين وخصوصا فى حالات تقصيرهم أو عجزهم عن تربية أولادهم ، وفى حالة تحريضهم للطفل على التسول أو دفعهم له لارتكاب الذنوب . . . ولهذا يصح أن توضع نصوص صريحة فى القانون تبيح نزع السلطة الأبوية فى مثل هذه الأحوال .

(٣) يبنى التشريع مواد القانون بتقسيم الأحداث إلى طوائف بحسب العمر الزمنى ، ولكن من الأجدر أن يؤخذ فى الاعتبار أيضا العمر العقلى

للحدث الذى يمكن معرفته بمقاييس الذكاء ، لأن هذا يرتبط بالنضوج فى الإدراك والقدرة على التمييز بين الخطأ والصواب .

(٤) يجب أن ترفع كافة العقوبات التأديبية عن الحدث وخصوصا أحكام الحبس والسجن ، وأن تستبدل بها توجيهات مناسبة للتربية والعلاج والإصلاح فى البيئة المناسبة .

٥ — ينبغى تعميم نظام محاكم الأحداث ، وأن يكون القائمون بالعمل فيها من قضاة وخبراء ممن تخصصوا فى دراسة الطفولة ومشكلاتها النفسية ، وأن يكونوا ملمين بالخدمة الاجتماعية للأحداث — على ألا يكونوا عرضة للتغيير والنقل بحيث تضمن لهم ترقياتهم فى أماكنهم ، ليتقنوا عملهم فى ضوء الخبرة بمشكلات البيئة .

ويجب أن ترمى دراسة قضايا الأحداث إلى بحث الدوافع النفسية للانحراف ، لا إلى مجرد إثبات التهمة أو نفيها عن الحدث .

ثالثا : النواحى العلاجية :

وهى التى تتناول الترتيبات اللازمة نحو الحدث ذاته من حيث تشخيص ظروفه أو علاج شخصيته من النواحى الطبية أو النفسية أو الخلقية ، أو تتبع حياته بعد خروجه لمعاودة الاشتراك فى الحياة العادية . وينبغى مراعاة ما يأتى : —

(١) أن تنشأ عيادات نفسية تلحق بمحاكم الأحداث يوضع الحدث فيها تحت الملاحظة والدراسة مدة تكفى لرسم خطة علاجه فى ضوء التقريرات التى يضعها المختصون بالعيادة .

(٢) يجب الإكثار من منشئات الأحداث وإصلاحياتهم وأن تنظم إدارتها والعمل بها بحيث تكون مراكز للبحث والدراسة ، ومعاهد لتربية

الأحداث وإصلاحهم ، فيقوم بالإشراف عليها مختصون فى التربية والخدمة الاجتماعية ، ولا داعى لأن يوجد بها ما يشعر بأنها نوع من أنواع السجون .

ويمكن الاسترشاد فى تنظيم هذه الإصلاحيات بما يوجد فى هولندا وبلجيكا وغيرها من الدول المتقدمة فى ميدان الإصلاح الاجتماعى ، كأن تقوم الحياة فيها على نظام الأسر House System .

(٣) ينبغى العناية بتشغيل الأحداث وتعليمهم الصناعات العملية فى ضوء بحوث التوجيه المهنى Vocational Guidance إذ أن خير علاج للنفس والخلق هو قضاء الوقت فى عمل منتج يشعر الفرد أثناء قيامه به بالراحة النفسية .

(٤) يحسن أن يترك الحدث فى وسطه العائلى وبيئته التى نشأ فيها كلما أمكن ذلك ، بحيث توضع له الوسائل الكفيلة بالإشراف على تربيته وتهذيبه بإرشاد القاضى والمختصين بالعيادة النفسية للأحداث ، مع القيام بإصلاح البيئة إذا تيسر ذلك .

(٥) يجب العناية بتوفير العمل المناسب للحدث عند خروجه من الإصلاحية بعد انتهاء مدة بقائه فيها ، ويصح أن تعاون فى ذلك الجهات الخيرية والشركات الصناعية كما ينبغى الاهتمام بالدراسة التتبعية Follow up Study للحدث ، واستمرار الإشراف عليه بمعرفة الباحث الاجتماعى حتى يتم انتظام حياته فى المجال الاجتماعى العادى .

مراجع الفصل السابع

1 . Bowlby, J. : Forty-Four Juvenile Thieves. 1946.
2 . Burt, C. : The Young Delinquent. 1927.
3 , Friedlander, K. : The Psychoanalytical Approach to Juvenile Delinquency. 1947.
4 . Glueck, S. & Glueck, E. : One Thousand Juvenile Delinquents. 1934.
5 . Hadfield, J. A. : Psychology and Mental Health. 1950.
6 , Healy, W. & Bronner, A. F. : New Light on Delinquency & Its Treatment. 1936.
7 . Merrill, M. A. : Problems of child Delinquency. 1937.
8 . Mullins, C. : Crime and Psychology. 1945.
9 . Stott, D. H. : Delinquency & Human Nature. 1950.
10. Thurston, H. W. : Concerning Juvenile Delinquency. 1942.

مراجع عربية :

١ — أسس الصحة النفسية : للدكتور عبد العزيز القوصى .

٢ — تحليل الشخصية : للدكتور محمد خليفة بركات .

٣ — حلقة الدراسات الاجتماعية للدول العربية : اجتماع بيروت سنة ١٩٤٩ : محاضرة الدكتور محمد صلاح الدين بك عن الخدمات الاجتماعية للأحداث المنحرفين .